دعاء سعد
رواية
عاصين

اسم العمل: عاصين.

النوع: رواية اجتماعية.

الكاتب: دعاء سعد.

تاريخ النشر: 2025

تصميم الغلاف: مريم.

حقوق النشر محفوظة للكاتب ©

رواية "عاصين"

ماذا لو عاد ماضيك ليطاردك من جديد؟

اقتباس

تقطع شكه بيقينه فهي تعلم سبب أسئلته:"

-عاصي قالها متقربش من مكان أنتَ فيه.

-ليه بعض، ولا بأكل بني آدمين؟"

- بس إيه الحلاوة والشياكة دي، ها ناوي تتجوز عليا أمتى؟"

-قريب جدًا هعمل كدا، بس ألاقي بنت الحلال اللي ترضى تتجوز على ضرة"

" حب إيه أنت مختل عقليًا. اللي بيحب حد مش بيأذيه، مش بيذله قدام الناس، أنت متعرفش تحب أصلًا، أنت معندكش قلب."

"فالأمنيات الأخيرة يجب تحقيقها، مهما كانت قاسية."

"أنت تجعل الفتيات تقع في غرامك. صحيح؟"

"-أوه، أنت تبالغ، أنا فقط أبدو عادية.

-لا أستطيع أن أراكِ عادية، كيف للنبض أن يكون عاديًا."

إهداء

إلى

الذين يسعون خلف الحقيقة، الذين ترهقهم التفسيرات
والأجوبة ومع ذلك يأتون على أنفسهم لأجل فضلوهم الجمّ.

الفصل الأول: توبة

الأشعة الذهبية التي تصبغ الأرض بلونها، لتضفي لمسة من الجمال وتنشر الحب في سائر الأرجاء، يتفتح فيض من الزهور بعد سبات عميق ليحظى ببعض الانتعاش وتتراقص بتلاته في تناغم، وأغنية للحب نستمع لها في هيام، تنطلق من مذياع إحدى سيارات الأجرة بلونها الأصفر وبقعها السوداء المربعة على الرفراف وكلمة " تاكسي" محفورة على لافتة صغيرة أعلاها.

"أهواك وأتمنى لو أنساك وأنسى روحي وياك

وإن ضاعت يبقى فداك لو تنساني

وأنساك وأتاريني بنسى جفاك وأشتاق لعذابي معاك

وألقى دموعي فكراك أرجع تانى

في لقاك الدنيا تجيني معاك ورضاها يبقي رضاك

وساعتها يهون في هواك، في هواك طول حرماني"

* **

منزل يوحي بالثراء من خارجه، تحيط الأشجار والزهور بأسواره العالية، وإذا دلفت للداخل ستلاحظ لوحات لفان جوخ، بيكاسو، جمعيها لوحات نادرة وفريدة. ثرّيات كريستالية زرقاء اللون متدلّية من السقف. التحف الفنية الثمينة الموضوعة بانسيابية، الطاولات المطعمة بالعاج. بعض التحف مصنوعة من خشب الصندل ذو الرائحة العطرة. شاب في مقتبل ثلاثينات العمر وبالتحديد اثنان وثلاثون عامًا، وسيم الملامح، عيناه الخضراء، شعره الأسود

اللامع، أنفه المنمق وثغره كذلك، رياضي القوام، جبهته العريضة، ستقع أي فتاة في غرامه. يجيد الطهى كذلك. ولكن لا شيء يكتمل، فهو أضحى متزوجًا الآن.

يجلس على كرسي مكتبه، مرتدي قميصه القطني الأبيض و سرواله الرياضي الرمادي ينقر بأصابعه حاسوبه لينجز الأعمال المهمة قبل الذهاب إلى شركته. وفي هذه الأثناء تدلف إليه زوجته متوترة وخائفة، تفرك أصابعها ببعضهما في قلق يلمع في عينيها البندقية، ينكمش جسدها المتناسق ويصبح نحيلًا، شفتاها ترتجف، تنساب خصلة كستنائية من شعرها، بشرتها البيضاء يتخللها بعض الشحوب قليلًا.

تقترب منه في خوف وتوتر، ولا تعلم لماذا أصبحت تخاف منه هكذا:

- عاصي عاوزة أكلمك في موضوع؟

ينظر إليها في ودٍ ويخبرها محبًا وهادئًا ليزيل عنها إثر التوتر، ويحضر كرسيًا مقابلًا له لتجلس وتكون أمامه مباشرة:

- تعالي أقعدي قصادي، أيوه أتفضلي.

تقترب وتجلس مقابلهَ وتفرك كفً بكفٍ في توتر وتلعثم وتنكس رأسها للأسفل في خشية :

-عاصي، أحنا..

يتناول وجهها بيده في حنو ويخبرها مهدئًا لها:

-مالك يا نارين خايفة ليه؟ إيه حصل طيب؟

تتجمع الدموع في عيونها وتجيب في خوف ممزوج بالشجاعة:

-أحنا لازم نصلي ركعتين توبة لله يا عاصي.

ينظر إليها مستغربًا ومتعجبًا من الذي تتفوه به، فهذا الكلام لا يمكن أن يصدر منها:

-طب ليه يعني؟

احتل الصمت وقتًا هينًا ومن ثم قاطعه ردها عليه، لتنساب دموعها بغتة أثناء حديثها لتكسر كل حواجز الصمت:

- أنا بحثت أنه علاقتنا كانت حرام، وحتى لو أتجوزنا، أحنا عملنا معصية كبيرة ولازم نتوب عنها.

يكفكف دموعها بيده الحانية ويجلس جاثيًا على ركبتيه ليفهم ما الذي حدث لها فجأة:

-نارين أنتِ كويسة؟

تنهار باكية، وتشهق في محاولة لمنع انهمار مزيد من الدموع ولتستطيع الحديث بصوت ثابت، ولكن لا تستطيع ويخونها صوتها ودموعها كذلك:

-أنا كويسة، أيوه، أنا حاسة بالذنب يا عاصي من أول ما عرفت، أنه حتى علاقات الارتباط والحب لا تجوز برضو، ولازم يصلوا ركعتين توبة لله. وأحنا ذنبنا كبير، وأنا ذنبي أكبر منك بكتير.

يكفكف دموعها ويخبرها في ودٍ، مستفسرًا عن حالتها وما الذي آلت إليه، وتغييرها المفاجئ، فها هي أمامه ترتدي حجاب وإسدال للصلاة لأول مرة ربما منذ زواجهما، ومنذ فترة زمنية كبيرة جدًا، ربما منذ وفاة أخيه وصدمتها العصبية واختلال عقلها:

-طيب أهدي، أيه حصل لدا كله؟

تنهمر دموعها بالرغم من محاولاته البائسة ليبعث الطمأنينة في قلبها دون جدوي، لتجيب بشهقات متقطعة:

-لأني خفيت، عرفت أميز دلوقت غلطي وذنوبي وأتمنى ربنا يسامحني.

يتناول يدها ويقبلها ويحتضنها في سرور بالغ غير مصدق ما يحدث:

- قولي والله، أحلفي كدا. طيب يلا بينا نصلي دلوقت، أنا حاسس أني بملك الدنيا وبما فيها. بس أزاي دا حصل؟

تبقي بجوار قلبه وتخبره بكل ما حدث وهي متشبثة به وكأنه بالفعل هو الأمان في هذه الدنيا الموحشة والقاتمة:

- والله بجد، وخايفة ربنا ميقبلناش. كنت بتابع مع دكتور وكمان أنت بتوفر جو مناسب لي وبتحاول تتغاضى، والولد كمان ساعدني، ودا غير الأدوية والجلسات اللي كنت بأخدها.

يخبرها مربتًا على ظهرها في ود بالغ:

-هيقبلنا بإذن الله، الشيخ قالي أن ربنا سبحانه وتعالي بيفرح بالعبد التائب ويباهي بيه الملائكة. أنا والله مبسوط بيكِ.

تخبره في نبرة عفوية وبريئة كطفل صغير حديث العهد بأمور دينه وحياته:

- بص هو ركعتين مش كفاية، هنصلي لحد ما نتعب.

يخبرها في قبول وسعادة:

-حاضر، اللي عاوزاه.

ومن ثم يردف بشك:

- بس لحظة أنتِ شايفة دلوقت مين قدامك؟

تطلق ضحكة في دوامة بكائها ومن ثم تجيب: شايفاك أنتَ يا غبي.

يسألها مجددًا وهو غير مصدق: طيب لون شعري إيه؟ أشقر ولا أسود؟

تضع يدها على رأسه وتتخلل أصابعها غرّة رأسه: شعرك أسود، وعيونك خضراء مش زرقاء، ولون بشرتك حنطي مش أبيض، ها. أنا شايفاك أنتَ مش عمار يا عاصي، أنا خفيت بطلت أشوفه فيك.

ومن ثم ترتمي بحضنه باكية، ليربت على ظهرها، ويكفكف دموعها وهو يحمد الله كثيرًا على تعافي زوجته.

ها هو ذا أصبح يمتلك كل سعادة الدنيا، زوجته تعافت، و لديه طفل يملأ حياتهما سرورًا وبهجة، ماذا يريد أكثر من ذلك؟

جميعنا نستحق فرصة جيدة، وحياة يستحق أن يقال عنها أنها بالفعل حياة وليست مجرد غبار وبقايا رفات لحياة مهشمة.

في مكان آخر...

في ذات الصباح الهادئ والذي يخلو من المشاحنات والمنغصات بكل أنواعها. ها هو طائر الكروان ينشد بصوته البهي " الملك لك، لك يا صاحب الملك" أو ربما ينشد متألمًا "أشكو لك، لك يا صاحب الملك" في كلتا الحالتين ستسمع صوته الشجي، صوتًا ينم عن الفرح أو الحزن والخوف، مهما كانت حالتك النفسية، ستشعر كما لو أنه يصفها بحذافيرها.

قصر شاسع تحيط به الأسوار العالية، مظاهر الترف والثراء جلية للعيان، حديقة بها رحبة وجنة مخضرة وأعشابها الندية، هذه هي عيشة الأثرياء وعليّة القوم. بالتأكيد عزيزي القارئ لا شأن لنا بهم،

نحن أبناء الطبقة الكادحة والعاملين باليومية والفقراء المعدمين، فنحن جيد أن نقرأ عنهم ونتمنى حياتهم ولكن لا يدركنا أن نصير مثلهم. فقط جهز طبق الفول وسندويتش الطعمية وكوب شاي في الخمسينية وأستمتع بهذه القصة وحسب.

يجلس بجوار زوجته التي تزوجها رغمًا عنه، ومع ذلك يعاملها بشكل ودود ومحب. يتناول قهوته والخبز الفرنسي الذي عليه مسحة قليلة من الزبد.

يرتدي قميص أزرق وبنطال رمادي، عينان رماديتين، شعر بني، أنف متناسق مع ملامح وجهه الوسيمة وقسمات وجهه البريئة، يضع سترته الرمادية معلقة على الكرسي بجوار حقيبته، يتهيأ لذهابه للعمل كما أمر والده.

يحادثها بنبرة ودودة ليصل إلى مبتغاه:

- جيان هو أنتِ ونارين بقيتوا صحاب؟

تنظر إليه بعينيها الجاذبة مزيج من اللون البني الفاتح ممتزج باللون الأخضر، لتخبره متأففة وحانقة:

-أيوه يا هادي بس ليه؟

يهز كتفيه بلا مبالاة:

-لا عادي يعني، ولا مرة شوفتها تزورك يعني.

تقطع شكه بيقينه فهي تعلم سبب أسئلته:

-عاصي قالها متقربش من مكان أنتَ فيه.

يخبرها مستهزئًا عاقدًا لحاجبيه، يبدو وسيمًا جدًا بهذا التجعيد الذي ينصف جبهته:

-ليه بعض، ولا بأكل بني آدمين؟

تزم شفتاها وتخبره بتبرم:

-يا هادي يا حبيبي هو زوجها فبراحته يعني.

يحاول استمالتها بشتي الطرق:

- طيب جربي تتصلي بيها وأعزميهم على الغدا.

تحاول أن تجعله يفهم بنبرة يائسة منكسرة:

-يا هادي مش هترضى، بس حاضر هكلمها.

تنهض من جواره وتبحث عن هاتفها، بعد أن وجدته تحاول الاتصال مرارًا وتكرارًا ولكن دون جدوي، لم يعد لديها خيار سوى أن تستخدم الهاتف الأرضي لتهاتف سيدة المنزل. بعد محاولات ليست بهينة، تجيب خادمة المنزل بصوت هادئ:

- أيوه يا ست هانم؟

جيان بنبرة ودودة:

-نارين موجودة؟

الخادمة بنبرة معتذرة:

-معلش يا ست هانم مشغولة مع البيه. أتصلي في وقت تاني.

تغلق وتتحدث إليه وتنظر في حنق وانفعال:

-عجبك كدا.

يسألها بلا مبالاة وكأنه لا يهتم لحديثها:

-إيه حصل؟

جيان وقد اعتراها الخجل:

-مع زوجها، يعني والخادمة بتقولي أتصل وقت تاني.

هادي بنبرة مستهزئة:

-طيب وماله.

هناك الكثير من الخبايا والأسرار كذلك، التي ستنكشف رويدًا رويدًا، وينقشع الغمام عن سماء الحقيقة، ولكن لكل شيء وقته، كما يقولون" المستخبي مهما طال الزمن هيبان"

الفصل الثاني: دعوة تصيب القلب

في ركن الصلاة الصغير بمنزلهم، ركن صغير يحتوي على سجادتين و مكتبة صغيرة بحجم الدرج بها مصحفين، أحدهما بالأخضر الغامق المائل للسواد والآخر باللون الأزرق الفاتح.

يقف أمامها مكبرًا على سجادة الصلاة، فهو من يأمم بها وهي خلفه تستمع في خشوع ورهبة، تدعو الله أن يقبلهما عبدين تائبين.

بعد أن انتهيا، التفت إليها وأمسك يدها وقربها منه في محبة، ومن ثم قال بنبرة هادئة:

- نارين عاوز أعترف لكِ بحاجة؟

توجس في قلبها الخيفة وتزدرد ريقها:

-أتفضل؟

يربت على يدها ليجعلها تهدأ وليبث في قلبها الأمان :

- لو أنت خايفة لأنك فاكرة أنك قتلتِ حد، فأنت مقتلتيش حد يا نارين؟

لا تصدق أي كلمة من كلامه فتردف في شك :

-طيب واللي كلمته ينفذ المهمة وقالي أنه قتلها.

يحاول إلا يضحك فتنفلت من ثغره ضحكات متتالية، ليتحدث مستهزئًا بها :

-قوليلي كان اسمه إيه كدا وكان من فين؟

تنظر إليه بنبرة طفولية وتزم شفتيها في اعتراض:

-متضحكش عليا، كان كونت فربتشينو وكان من المكسيك وكان بيتكلم بلغة غريبة ومش مفهومة.

عاصي معاتبًا لها:

- وأنت صدقتِ؟

تنكس رأسها في خجل:

-أيوه صدقت.

يخبرها بنبرة مشفقة وحزينة:

-مقدرتش أشوف أيديك وهي بتتلطخ بالدم في إنسان برئ ملوش ذنب. أنتِ كنت مجنونة بس أنا كنت عاقل، بالرغم من كل حاجة محدش له الحق يقتل بني آدم أو يأذيه.

ومن ثم يردف بأسي، وهو لا يعلم حقيقة الأمر:

- بس مقدرتش أمنعك، من أنك تضيعي نفسك. كنت خايف لو قولتلك لا، تموتي نفسك. آسف أني سبتك.

وفي خضم حديثهما. تطرق الخادمة على غرفة المكتبة وتتحدث بصوت مقموع:

- ست هانم.

تنهض من جواره وتخبر الخادمة بالدلوف إليهم:

- أتفضلي.

الخادمة بنبرة خنوعة:

- جيان هانم أتصلت.

تشير لها في ود بالمغادرة، وتخبرها بأنها ستهاتفها بعد قليل:

- طيب هكلمها دلوقت.

يقاطع حديثها عاصي ويخبرها بنبرة متعجبة:

-من أمتى وأنتوا صحاب؟

تذهب ناحية الباب وتخبره في نبرة رقيقة:

- جيان طيبة قوي يا عاصي وبتسامح وقلبها كبير، يكفي تعتذر لها وهي هتسامحك.

ومن ثم تستدير وكأنما تذكرت شيئًا ومن ثم أردفت سائلة في شك:

-بالمناسبة طلما بولا مماتش طيب راحت فين؟

يخبرها ليسكت فضولها:

- سافرت مع باباها، أوكرانيا. وهناك هتعيش مع مامتها الأوكرانية. وهتتعالج من الإدمان هناك.

قبل أن تغلق الباب، ترسل قبلة في الهواء وتخبره بحب كبير:

-شكرًا، وبحبك كتير جدًا.

تتركه ليبدل ثيابه ليذهب إلى عمله، وتبحث عن هاتفها، لتجد أن جيان هاتفتها ثلاثين مرة. تضغط على رقمها المدون بالهاتف النقال ومن ثم تنتظر إلى أن تجيب، لتخبرها بنبرة آسفة:

- آسفة يا جيجي كنت بعمل حاجة مهمة، أنتِ كويسة؟

تخبرها جيان في الطرف الآخر من الهاتف مهدئة لها وترتجي منها طلبًا قد يكون ثقيلًا عليها:

- الحمد لله يا روحي، بقولك ممكن تيجي تزوريني، عازماكِ على الغدا؟

تتململ نبرة صوتها:

- جيان... بصي مقدرش والله، مقدرش أكسر كلمة عاصي. أنتِ ممكن تيجي، ومتقلقيش عاصي مش هيكون موجود، أنتِ عارفة أني بسربه، لما تكوني جاية عندي، عشان ناخد راحتنا.

تسأل مجددًا وتحاول أن تستميل قلبها:

-عارفة والله، يعني مفيش أمل تيجي؟

تجيب بحرج وتفرك كف بكف من التوتر:

- مقدرش والله. معلش يا حبيبتي سامحيني.

تخبرها بنبرة خائبة وصوت يشوبه الحزن:

- ولا يهمك يا روحي، عادي أنا متفاهمة.

تحاول نارين أن تراوغ وتبدل مسار الحديث، لأنها شعرت بنبرة صوت صديقتها المحزونة:

- جيان متزعليش مني، بس بجد أنا مقدرش. عاوزة أقولك حاجة هتفرحك.

جيان وقد تبدلت نبرتها من البأس إلى الفرح:

-فرحيني.

نارين بنبرة طفولية:

- أنا خفيت.

تطلق جيان زغرودة من فرحتها وما يبلغ قلبها من سرور:

-لولولولي بجد مبارك والله فرحت من قلبي.

يأتي من خلفها زوجها، ليرى ماذا تفعل تلك المجنونة:

- إيه ردها؟ في إيه يا جيان؟

تغلق الهاتف وتنظر له في بأس ومن ثم تتبدل ملامحها وتكاد السعادة تجحد من عينيها وتخبره بمودة:

-مش هتقدر تيجي يا هادي، جوزها... مش موافق. لا مفيش كانت بتقولي أنها خفت، بجد أنا مبسوطة جدًا.

يتحدث بلا مبالاة وكأن هذا الخبر لا يهمه البتة:

- ماشي، طيب.

تعقص ذراعيها وتخبره في شك وريبة:

-بس ليه مصمم كدا يعني؟

يجيبها بدون اهتمام أو أي نبرة محددة:

-لا مفيش عادي يعني.

تربت على كتفه وتخبره في ود وحنان:

- طيب يلا بينا مش هتصلي.

يشير لها بالمغادرة ويخبرها بأمر:

-سبيني دلوقت ورايي شغل مهم.

تسأله بخوف فهي تخشي عليه ويكاد القلق يمزق قلبها، وخصوصًا من تصرفاته الغريبة مؤخرًا:

-أنت بطلت تصلي من فترة ليه كدا؟

يحاول أن يصرفها بأي طريقة فهي تعيق ما يريد أن يفعله:

-معرفش، يمكن الشغل متراكم بس. هحاول أصلي.

تطبع قبلة على خده ومن ثم تخبره مودعة:

-هدعيلك، ربنا يهديك.

يشير لها بالمغادرة، لقد مل من طريقتها المستفزة تلك:

- طيب روحي.

***

يرتدي قميصه الأبيض وبذلته ذات اللون الأزرق الغامق، يدلف إلى زوجته قبل أن يغادر، ومن ثم يسألها عما كانت تريده صديقتها منها بنبرة جامدة:

- كانت عاوزة إيه؟

تخبره بخوف وتفرك يديها ببعضهما فهي تعلم أن هذا الحديث سيجعله يغضب:

- كانت عاوزني أزورها.

ينفعل من إجابتها ويجيب بنبرة حادة:

-وأنا قولت متروحيش هناك.

تحاول أن تهدأ من روعه وتخبره مطمئنة:

-قولتها مش هقدر أروح يا عاصي وهي أتفهمت دا. مش هكسر كلمتك.

يضمها إليه ويخبرها قلقًا:

-أنا خايف عليكِ يا نارين والله خايف عليكِ.

تبتعد عنه قليلًا لكي لا تتجعد بذلته:

- أنا فاهمة دا، ربنا يخليك ليا.

ومن ثم تردف بإعجاب:

- بس إيه الحلاوة والشياكة دي، ها ناوي تتجوز عليا أمتى؟

يخبرها ضاحكًا ومشعلًا في قلبها فيض من الغيرة:

- قريب جدًا هعمل كدا، بس ألاقي بنت الحلال اللي ترضى تتجوز على ضرة.

تتمتم غاضبة:

- طيب روح شغلك.

يمسك خدها ويخبرها مستفزًا:

-لما بتتعصبي وشك بيكون زي حبة الطماطم، ومتقلقيش هتجوز بعد ما تموتي ومش هستنى دقيقة واحدة.

تحاول أن تكبح دموعها وتخرس الكلمات في حلقها، ليردف بنبرة حنونة:

-مقدرش أتخيل حياتي من غيرك يا نارين، أنتِ حياتي.

***

يدلف إلى شركته بخطوات ثابتة ليتجه إلى مكتب معين ومن ثم يهاتف الأحمق الذي بداخله بنبرة أمرة:

-خلصت الشغل يا زفت.

يخبره بعد أن عدل نظاراته:

- خلصته يا فندم.

يخبره بنبرة هادئة:

-بقولك إيه؟

يقف ويخبره بخنوع:

- أتفضل؟

ينظر باتجاه شخص ما ومن ثم ينفجر ضاحكًا:

-البت جيلان عينها منك؟

ينظر له ببلاهة ومن ثم يسأل عن مقصده:

- جيلاتي مين؟ إيه الاسم العجيب دا؟

يتكأ على المكتب ومن ثم يخبره مصححًا وبنبرة أشبه بالهمس:

-جيلان يا حمزة مش جيلاتي.

يخبره حمزة متعجبًا ومستغربًا من حديثه عنها ويتصنع البلاهة فهو بالفعل يحبها ولكنهما لا يتحدثان وإن نظرا لبعضهما تكون خلسة وأن رأته ينظر لها تعنفه وتخبره أن ينظر بعيدًا:

-ما علينا جيلي أو جيلاتي، مال عينها مطروفة ولا عندها حول؟

يضع يده على جبهته وقد ضاق ذرعًا منه:

- حول؟ يا بني البنت باين أنها بتحبك أتلحلح وأخطبها.

يخبره بنبرة ساخرة:

-جيلاتي، بتحبني أنا؟ لا حول ولا قوة إلا بالله. اختيار منتاز.

يخبره عاصي أن يكف عن المزاح:

- متهزرش يا بني، بجد والله جرب كدا تتكلم مع نادين وهتلاقيها أتعصبت واتجننت.

يردف حمزة ممازحًا غير مصدق لما يسمع:

- بقا الجيلاتي هتبص لدوا الكحة؟

يحاول أن يجمع قلبان متحابان، فجيلان بالنسبة له أخته الصغرى وحمزة كذلك ولا يريد لقلبيهما التلوث أو البكاء على النصيب، فهو

وحده يعلم معني أن تحب أحدًا وتجبرك الحياة على شخص آخر رغمًا عن أنفك:

-بص هسهلك الدنيا، خد رقم أبوها، وكلمه وأهو سهلتلك طريق طويل أهو، جيلاتي ياوه لخبطني قصدي جيلان هتفرح جدًا لما هتشوفك خدت خطوة جد.

ينكس حمزة رأسه ويخبره خجولًا وعاجزًا:

-بس أنا مش معايا شقة ولا أي حاجة؟ هتقدم أزاي وأنا كحيان.

يحاول طمأنته ويربت على كتفه:

- متقلقش من الحتة دي، اختار الشقة اللي تعجبك وأعتبرها هدية جوازك من جيلاتي.

يعدل من عويناته ويخبره بنبرة محذرة:

- لو سمحت يا عاصي، جيلاتي بتاعتي.

يهم راحلًا ويخبره بأمر:

-ماشي، خلص شغلك يلا.

ما الذي تخفيه ألا تحب زوجتك يا رجل؟ وعن أي نصيب ذلك الذي حطم رجلًا مثلك، بت تخفي الأسرار أنت أيضًا.

الأسرار التي لا تقال غالبًا ما تكون تافهة والتي تروى تكون أكثر تفاهة كذلك. فأين الأسرار الحقيقية إذًا؟

الفصل الثالث: طرد بالذوق

بعد مضي أسبوع..

مضت الأيام هادئة بالنسبة للبعض ومتوترة للبعض الآخر، في شقة على سطح إحدى العمارات في منطقة أقل ما يقل عنها شعبية.
يسكن حمزة ذو الثامن والعشرون عامًا، شاب كأي شاب بملامح مصرية أصيلة، شعر أشعث، عيون بنية، جسد متناسق ليس بالقوي ولا الهزيل، قسمات وجهه بريئة تزينه لحية خفيفة، نظارات دائرية تحيط بوجهه، يبدو كنظارة في داخلها وجه شاب. داخل شقته أو علبة السردين كما يسميها أغلب أقارنه من الحي الذي يسكن به، هناك سرير وغرفة للمطبخ تحتوي على أواني قليلة وموقد صغير، ثلاجة صغيرة، غرفة للاستحمام وقضاء الحاجة، مكتب صغير عبارة عن طاولة خشبية يضع عليها أوراق عمله.

وها هو يتجهز لمقابلة والد الفتاة التي يبتغيها فؤاده، يرتدي بنطال أسود وقميص أزرق فاتح، ويهبط أدارج السلم وهو يستغفر ويسبح، بغاية أن يسهل الله له ما يبتغي، يذهب إلى عم مختار صاحب المقلة، ليشتري علبة شكولاتة وبعض المقرمشات التي تحبها نبض الفؤاد، فشراء علبة شكولاتة بماركة غالية سيكلفه مالًا إضافيًا، في حين يحاول أن يدخر كل قرش لأجل شراء شقة تليق بعروسه المستقبلية.

يطرق باب الشقة المقصود، ويقف متهيأً ليدلف إلى الداخل.

يفتح الباب رجلًا في الخمسين من عمره، ويشير إليه أن يدلف ويجلس في غرفة الضيوف "الصالون". ينصاع لإشارته ويجلس في تواضع ورهبة من هيئة السيد الجالس أمامه.

يشير له بالتحدث، فيتحدث في خوف وتوتر فيتلعثم في الحديث:

-عمي أنا جاية أتقدم للأنسة بنتك.

يسر والدها ضحكة تكاد تهرب من بين ثغره، لولا تحكمه في رباط جأشه:

- أي واحدة فيهم، جيلان ولا روفان ولا نهلة.

يخبره متوترًا فهو لا يعرف كيف يلفظ اسمها، يبدو ثقيلًا عليه ولو أخبره بنطقه لأنفجر والدها ضاحكًا:

- الأولني.

ينظر والدها له في شك ويحك أسفل ذقنه:

-وفين أهلك يا بني.

يحاول استجماع شجاعته ويخبره بآسي:

- أهلي تعيش أنتَ يا عمي.

تحتد نبرة والدها ويخبره بحدة:

- مالكش عم، خال أي حد.

يعدل نظاراته بتوتر ويخبره باستعطاف:

- ليا، بس معرفش عنهم حاجة.

يقف والدها ويخبره بكل حزم:

-آسف مقدرش اديلك بنتي، كل شيء قسمة ونصيب.

يطرق الباب طرقًا خفيفًا، فيذهب ليرى من بالباب، ليجد عاصي في يده علبة حلويات وباقة زهور من أزهار الجراند فلورا البيضاء.

بعد أن دلف إلى الداخل ووضع الأزهار والحلويات على الطاولة، يبادر زمام الأمور بأن أخبره برجاء وترجي:

- أستاذ شكري، مينفعش أخوه الكبير طيب.

يتململ قليلًا فهو يحب عاصي كما يحب بناته وربما أكثر، وإن لم يكن متزوجًا لزوجه جيلان:

- يا عاصي يا بني، أنتَ عارف الأصول.

يربت على كتف حمزة وهو يقول مدحًا له:

-حمزة وكويس ومحترم يا عمي بجد، وأنا أضمنه، وبعتبره أخويا الصغير.

تتكور الدموع في عينيي حمزة ومن ثم يتحدث بامتنان:

- متشكر بجد، جميلك فوق رأسي.

يلكزه في كتفه ومن ثم يردف ممازحًا:

-متقولش كدا يا عبيط، أنتَ دراعي اليمين وأخويا بجد يا حمزة.

يتراجع والدها عن قراره ويخبره في ابتسامة رضا:

- هاخد مهلة وأرد عليك يا عاصي.

يستأذن عاصي من السيد شكري، قائلًا في رجاء:

-طيب ممكن نخليهم يتكلموا مع بعض شوية. وخلى معهم نهلة وأنا وأنت نشرب قهوة أو شاي في البلكونة.

والدها في رضوخ لطلبه، فلا ضرر من المحاولة:

-ماشي.

يتركوه بمفرده لتدلف إليه وهي ترتدي خمارها الأزرق وفستانها الأخضر، تبدو كوردة زرقاء باهية. تجلس على الكرسي المقابل له، بينهما مسافة متر واحدًا تقريبًا.

يخبرها متوترًا وهو ناكص برأسه في الأرض:

-جيلاتي، بصي أنا جيت ودخلت الباب من بابه، ومعرفش إذا كان أبوك هيوافق أو لا عليا بس أنا حاولت.

تخبره بلطف وتفهم لأول مرة:

- مش عارفة أقول إيه محترمة قرارك جدًا، ولو لينا نصيب في بعض أكيد خير.

يسألها بتلعثم وراجيًا في الوقت نفسه:

-جيلاتي، هو أنا معرفش عنك حاجة، هو ممكن نتكلم ولا دا غلط؟

تخبره في نبرة هادئة وعادية دون تكلف أو رقة:

-بص بابا زي ما أنتَ شايف بيخاف علينا جدًا، وكمان عاوز يأمن مستقبلنا، ماما كذلك الأمر بس هي مش موجودة لظروف شغلها القهرية. ها محتاج إيه تاني؟

تتدخل نهلة في حديثهما ممازحة:

- دا بيقولك جيلاتي وساكتة عادي.

يتوتر ويتصبب عرقًا ويجيب خجلًا:

- مش بقدر أنطق اسمها صح.

تخبره أن لا يهتم، في محاولة لتهدأ من روعه:

-ولا يهمك.

تردف نهلة ممازحة مرة أخرى:

- بس جيلاتي حلو والله. هقولها من النهاردة يا جيلاتي.

تنظر لها جيلان نظرة حادة وتخبرها في تعنيف:

-بس يا بنت.

يتدخل ليخبرها في نبرة آسفة:

- آسف.

في شرفة الشقة المطلة على الشارع العمومي للحي السكني الراقي إلى حد ما. يجلس عاصي برفقة السيد شكري، أمامهما صينية الشاي وكل منهما أمامه كوب الشاي خاصته. يحتل حديثهما حمزة ومصير جيلان.

يتحدث عاصي بنبرة جادة وهادئة:

- الولد كويس بجد يا عمي، وأظن أنه شخص مسئول وكويس. ودي حقيقة، وكمان ملوش في الحوارات ولا اللف والدوران.

يضع السيد شكري كوبه على الطاولة ويخبره قائلًا:

- يا بني من حق كل أب يخاف على بنته.

يخبره راجيًا، ليستميل قلبه فهو يعلم مكانته في قلبه:

-من حقك طبعًا يا عمي، أنا بس طالب أنك تديه فرصة.

السيد شكري راضخًا للأمر الواقع، يعرف كيف يستميل قلبه:

-هنعمل خطوبة وبعدها ربنا يسهل.

يردف مبتهجًا تتخلل البهجة ملامح وجهه، فها هو سيجمع بين قلبين:

- عشمي فيك كبير والله وكنت عارف أنك مش هتخيبني.

السيد شكري مربتًا على كتفه وينظر له كما لو كان ابنه حقًا:

-مقدرش أخيبك يا عاصي، دا أبوك كان صاحبي.

يتذكر والده ويترحم عليه في قلبه وفي العلن:

-الله يرحمه.

* **

بعد مرور ثلاثة أشهر..

تشرين الثاني "نوفمبر" شهر تساقط الأوراق وتعرية الأشجار من سترها، الأمطار الخفيضة، تلك التي تشبه سقوط العبرات من العين، الصقيع الذي يلف الأرض الساعة السادسة صباحًا بالتوقيت الشتوي، الدب البري يستعد للسبات الخاص به ويحاول قدر ما يستطيع، ليخزن ما يمكنه تخزينه، تنفض البتلات الندية العلجوم، تتطير الطيور جنوبًا حيث الأجواء المعتدلة والدافئة، لتحتمي من سلطة الشتاء القادمة.

مكان ما في لندن، الساعة السابعة بتوقيت غرينتش. لندن المدينة المزدحمة صيفًا والأقل ازدحامًا شتاءً، سماءها الملبدة بالغيوم، أمطارها الغزيرة التي تجري في نهر الدانوب، عندما يخطر ببالك لندن ستتذكر تلقائيًا ساعة بيغ بن، متحف مدام توسو، والكثير من المعالم الأثرية الأخرى.

تستيقظ إحداهما من جوار زوجها، لتدلف إلى دورة المياه شاعرة بالغثيان، والتعب والإرهاق يبلغان ما يبلغان منها. تخرج بعد برهة من الزمن لتوقظ زوجها لتخبره بشيء هام.

تقترب من فراشهما وتهز زوجها لتوقظه:

- جاد أصحي.

يستيقظ رويدًا ويخبرها بودٍ:

- أيوه يا روح قلب جاد، صباحك جميل زيك.

تفرك كف بكف وتخبره في تلعثم:

-جاد أنا...

يعتدل في نومه ويجلس متربعًا على الفراش، ويخبرها مطمئنًا لها:

-أيوه يا قلب جاد في إيه؟

تتكور الدموع في مقلتيها وتخبره في فرح ممزوج بالدموع:

- أنا حامل.

يقفز مبتعدًا عن الفراش ليستوعب ما تقوله:

-بجد طب قولي والله، أحلفي كدا.

تريه اختبار الحمل بين يديها:

-بجد والله عملت الاختبار. أهو بص شرطيتين.

يحتضنها ويدور بها في أرجاء الغرفة ومن ثم يجلسها على الفراش ويتناول وجهها بكف يده:

- والله ما مصدق يا فيروزة، لا بصي أنتِ هتقعدي بقا وأنا هحضرلك الفطار وأهتم بيكِ من الأول خالص.

تنهض لتصنع له طعام الفطور:

- متأوفرش بقا.

يمسك يدها ويجلسها مقابله، مردفًا في حنان:

-أصلك مش فاهمة أنا مبسوط قد إيه، حاسس أني بمتلك سعادة الدنيا دي كلها، وأخيرًا هينور حياتنا بيبي صغير شبهك.

تسأله في شك وتهكم:

-وليه ميكونش شبهك؟

يخبرها بكل حب وهيام:

- لأني بحبك وحابب كل أولادي يطلعوا شبهك.

تخجل وتدلف خارج الغرفة، لا تعلم لماذا ما زال حبهما حيًا إلى الآن؟:

-مش هتبطل كلامك دا؟

يخبره مشدوهًا بحبها:

- ما أنا بحبك طيب مقدرش أبطل.

العلاقات تستمر باستمرار الأشخاص في المحاولة والسعي. جميل هو الحب أليس كذلك؟ لا أظن فأنت تتجرع معلقة من العسل لتليها معلقة من الحنظل وهكذا ودوليك، إلى أن تعتاد تذوق المر مغموس بالحلو.

...

الفصل الرابع: نوفمبر والمصيدة

في مكان آخر في توقيت آخر. ويوم بالتأكيد آخر.

نوفمبر الدافئ في أم الدنيا، الأمطار الخفيفة التي توشح الأرض كالندى في الخامسة صباحًا.

ها هو يجلس في غرفة الضيوف مع مخطوبته وبالتأكيد ثالثهما الشيطان، خسئت بجوارهما أختها الصغيرة بالطبع، لن يقبل صاحب الدار بإن يبقيا لوحدهما.

يبدأ حديثه خجولًا ويطلق اسمها الذي يتخبط به:

- جيلاتي.

تخبره في حنق وتأفف وصوت خالي من الرقة، صوت طبيعيًا وحسب:

- أي خدمة يا حمزة.

يخبرها خجولًا راجيًا أن تستميل قلب والدها وتشفع له عنده:

- ممكن تقولي لأبوك أني عاوز نكتب الكتاب؟

تنفعل وتحاول أن تستعيد رباطة جأشها:

- كلمه بنفسك ومع السلامة كلامنا دا غلط.

يخبرها أن تنتظر وحسب، فهو لم يخطئ:

- جيلاتي، طيب أديني فرصة.

تجذب نهلة من يدها وتخبرها أن تتحدث هي معه:

- نهلة تعالي، أتكلمي معاه.

تتركهما وقلبها يرفرف فرحًا، كما لو أن سربًا من الفراشات دلف إلى جوفها، وشعرت بابتلاع الفراشات في معدتها وكأن هناك حفلة موسيقية، تضم فراشات العالم أجمع بعدما هربت أتت إلى قلبها وحلقها.

تتكأ شقيقتها الصغرى عليه وتخبره هامسة:

- عمو حمزة، عاوز حد يتوسطلك.

يخبرها متلهفًا كمن وجد ضلته:

- يا ريت يا نونة.

تشير إليه في أبهة وكبرياء وتعال:

- بس جيت للشخص المناسب واللي هيخلصلك الليلة.

يبتسم ملء شدقيه ويخبرها ممازحًا:

- بحسك زي ستي يا نونة والله سبع سنين بس نينجا.

تطمئنه وتخبره في أبهة:

- عيب عليك يا باشا أنت تأمر بس.

يخبرها راجيًا فهي أمله الوحيد الآن:

- الأمر لله. المهم يا نونة حاولي تجري كلام أو أي انبهار في الدنيا. معتمد عليك.

تشير إليه بيدها أن الأمر سيتم وألا يقلق:

- متخافش السيطرة تحت كله.

ومن ثم يستأذن ليغادر فقد ذهبت وتركته مثلما تفعل كل مرة والآن سيضعها أمام الأمر الواقع ويتزوجها عنوة، وسيصبح كلامهما مباحًا، وستكون زوجته أمام الله وأمام الجميع.

بعدما غادر حمزة. تذهب الصغيرة نهلة لتتحدث مع والدها لتفي بوعدها لعمها حمزة كما تطلق عليه، ولتساعده في تعجيل زواجه من أختها، لأنها شعرت أن حمزة يعرف ما تحبه شقيقتها ويبتغيها حلاله.

في غرفة الضيوف أمام التلفاز تجلس صغيرته بجواره وتخبره كمن كان كبير هذه العائلة في رزانة:

-بابا لازم نزوج جيلان لعمو حمزة، منظرنا بقا وحش قدام الناس وهو كل شوية جاي زيارة، الناس كلت وشي.

يحاول ألا تهرب من ثغره ضحكة تفسد الموقف فيجريها في حديثها ويعدل من جلسته ليضع قدم فوق الأخرى:

-الناس كلت وشك برضو، حاضر هنجوزهم. بس الراجل مش بيجي غير وأنا موجود ومرة كل شهر.

تصك على صدرها، وتخبره في مكر ودهاء وكأنما تجيد تقليد جدتها جيدًا:

- حبيبي يا بابا. أنتَ مستهون بالمرة دي، الناس مش بترحم حد.

ينصاع والدها لحديثها الساخر ويخبرها بموافقته:

- حاضر يا لمضة، ابن الإيه عرف إزاي يكسبك.

تنظر له في عيون تحوذها البراءة وتبرم شفتيها وتخبره في جدية يشوبها الممازحة:

-عمو حمزة غلبان يا بابا بجد، حتى أنه بيخاف من بنتك، دي عاملة له رعب.

يستغرب والدها من حديثها، ولذلك يسألها عن كيفية إرعاب شقيقتها لخطيبها؟:

-رعب أزاي يعني؟

تجيبه بهدوء وبصوت متحسر:

- يكلمها كويس، ترد عليه من تحت ضرسها، وكل شوية تقوله وقتك خلص متجيش عندنا تاني، الناس بتتكلم عليا.

يشدوه من حديث طفلته ويخبرها ممازحًا:

-أختك مجنونة باين دا خطيبها هو حد من الشارع.

تحاول استمالة قلبه، وتتوسط لعمها حمزة كما تحب أن تناديه:

-والله يا بابا ما أعرف بتعمل كل حاجة عشان الراجل يطفش، وسبحان الله ثابت ولا عسكرى مرور.

يخبرها منشرح القلب، فخور بتربيته لفتاته:

- جيلان بتعمل اللي ربيتها عليه، بتعمل الصح اللي الكل فاكره تخلف وتشدد، العيب مش فيها، العيب في المجتمع اللي حواليها، أنا فخور بيها وبتربيتي.

ومن ثم ينادي عليها لتأتي باكية وتحتضنه فقد كانت تستمتع لحديثهما عنها، وهي تعلم أن التنصت خطأ وما كان عليها أن تفعل ذلك:

- وأنا بحبك يا بابا، ولو مش عاوز حمزة، قوله كل شيء قسمة ونصيب، وأنا هتفهم أنك عاوز مصلحتي.

يضمها إليه ويربت على كتفها ويسألها في ودٍ:

- أنتِ بتحبيه يا جوجو؟

تدفن رأسها في حضنه وتخبره الجملة التي يبتغيها فهي تحب والدها أكثر من أي شيء آخر:

- بحبك أنتَ يا بابا.

ليدور الترس على والدها ليخبرها بما تتمنى سامعه ويخفق قلبها لأجله:

- حمزة شخص كويس وصبور، ومناسب ليكِ وهنكتب كتابكم ونجوزكم لبعض ها مبسوطة دلوقت؟

تمسح دموعها وتخبره بصوت قانع:

-حبيبي يا بابا.

* **

صباح من إحدى صباحات شهر تشرين الثاني "نوفمبر" وها هو اقترب شهر كانون الأول "ديسمبر"، شهر البرد والحنين، شهر الوحل والطين والأمطار الغزيرة، الصقيع الذي يبري العظام ويجعد الجلود ويشحب الوجوه ليجعلها تحمل همًا وعمرًا فوق أعمارها وهمومًا تفوق كاهلها.

في ذلك القصر الشاسع، غرفة مكتبه، يراجع بعض الملفات المهمة قبل أن يهمّ مغادرًا. تدلف إليه زوجته وتقترب منه لتخبره في سعادة لا تسع هذه الدنيا:

-هادي أنا حامل.

ينظر لها بازدراء ويخبرها بشك:

- دا بجد؟

تشير إليه برأسها بإيجاب وبهجة:

-أيوه يا هادي ابننا.

يرمقها بنظرة فحواها لا تعلمه ولكن نظرته تفيض بالشك والإنكار:

-ماشي هكلم بابا و ماما يجوا يشوفوا الموضوع دا.

تقترب منه وتمسك يده والقلق يأكل قلبها:

-مالك مش مبسوط؟

يخبرها هادئًا، لا يوجد تعابير معينة فقط صوت و وجه جامد:

- لا عادي جدًا، أصبري بس.

بعد برهة من الزمن يأتي والداه مشدوهين ومتعجبين من استدعاء ولدهم لهم، يسكنون في مقاربة شارع وحسب يفصلهم عن هذا الصرح العظيم.

يتحدث إليهم وهو منفعل ويعطيهما برهان على حديثه:

- تعالوا شوفوا الست هانم بتقول أنها حامل، وأنا أصلًا مبخلفش، وأدي نتيجة التحاليل.

يقف والده مشدوه ولا يعرف ما الذي يحدث بالضبط:

-الكلام دا صحيح؟

تتدخل والدته وتنظر له في استعطاف وشفقة وتنفي التهمة عن زوجة ابنها:

- حرام يا بني، إيه اللي بتقوله دا؟

يعطي التقارير لوالده، ويخبره في انفعال يحاول التحكم به:

-أهو اتفضل شوف التحاليل بنفسك.

يقلب والده التحاليل يمنة ويسرى ليتأكد منها، وبالفعل تحدث الكارثة فالتقارير جميعها سليمة مائة بالمائة:

-التحاليل سليمة، فعلًا.

يلف ظهره لهم في غضب ويخبرهم حانقًا:

- خليها تشوف غلطت مع مين بقا؟

تترقرق الدموع في عينيها وتشعر كإن الأرض تضييق بما رحبت:

-والله دا كذب، دا حفيدك يا عبدالجبار بيه و دا ابنك يا هادي، والله ابنك.

يمسك ذراعها بالقوة ويخبرها في نبرة أمر:

- الولد دا مش ابني ولازم تجهضيه.

تضع يدها على بطنها وتحاوط على طفلها وتخبره في رجاء وخوف:

-مقدرش أقتل ابني.

والده ينظر لها في قرف ويخبره بأمر، لقد قضي الأمر:

-الولد مش ابنه ولازم ينزل.

تحاول أن تستميل قلبه وعطفه فتخبره والعبرات تسيل على خدها ندية كالغدق المنهمر:

- ليه حكمت لمجرد تسمع لابنك وبس، الحكم دا ظالم.

يشير بالأوراق في وجهها، ناظرًا لها بتقزز فكيف لها أن تخون ابنه وفلذة كبده، يشعر كم هي رخيصة ومقززة:

- الأوراق موجودة قدامي، هصدقك ليه؟

تتدخل والدته وتخبر والده بالصدق، وأن زوجة ابنه لا يمكن أن تكون خائنة:

- حرام عليكم الولد ابنه، جيان مش هتكذب، كفاية بقا.

يشير لها بالأنصراف لتتجهز، لقد انتهى وقتها، لقد صدر الحكم قبل الاستماع إلى باقي الأدلة:

- روحي جهزي نفسك هناخدك للمستشفى.

تشعر بالذل والهوان فتمتم قائلة:

- والله دا ظلم، يا ناس.

تتركهم وتصعد إلى أعلى حيث تقع غرفتها، فهي تعلم جيدًا أن الحكم قد صدر ولا رجعة فيه، لقد انتهى وحسم الأمر.

تدلف إلى غرفتها وتغلق الباب جيدًا. تبحث عن هاتفها كالمجاذيب، تهرع في كامل الغرفة، تحاول الاتصال بوالديها فلا أحد يجيب، تحاول مرات متتالية فتيأس من المحاولة، تطلب رقم صديقتها فيروزة وتنسى أنها بالخارج مع زوجها، تجلس وتبكي وتنوح على حالها وإلى ما آلت إليه الأمور فهي وقعت فريسة الخديعة ومن سينجدها الآن.

تمسك بهاتفها مجددًا، وتحاول الاتصال بالأمل الوحيد المتبقي، تنتظر إلى أن تجيب وما أن أجابت حتى استنجدت بها بنبرات خائفة وصوت مرتعش:

- نارين ساعديني، عاوزين يقتلوا ابني، وفيروزة مسافرة، الحقيني.

في الطرف الآخر تحاول نارين أن تهدأ من روعها:

- أهدي أنا جاية متقلقيش، أهدي واقفلي على نفسك.

تخبرها بصوت محشرج:

- والله ابنه يا نارين.

تحاول طمأنتها وجعلها تهدأ:

- أنا عارفة دا كويس. متقلقيش جاية.

تغلق معها المحادثة وتهرع لتبدل ثيابها وتستنجد بزوجها ليساعدها أو ليسمح لها بالمغادرة ومساعدة المسكينة التي سيقومون بإعدام صغيرها بدون أن يرف لهم جفن.

تخبره هلوعة وخائفة:

- عاصي الحقني عاوزين جيان تجهض.

يعتدل في جلسته ويطرح عليها السؤال المعتاد:

- طيب وأعمل إيه؟

تبحث عن حجابها قبل أن تغادر:

-لازم نروحلها نساعدها.

يخبرها رافضًا:

- متروحيش، يا نارين أنتِ مش سوبر مان.

تحاول أن تستميل قلبه ليذهب معها:

- أنا أم يا عاصي ومش معقول نسيبها يعني.

يقبض على معصم يدها ويخبرها منفعلًا:

- نارين لو روحتِ وحصلك حاجة مش هسامحك.

تخنع لحديثه وتخبره في انصياع:

-حاضر مش هروح، بس ممكن أروح للدكتورة معادي معها النهاردة؟ وهرجع في مفاجأة في أوضتنا أبقي روح شوفها.

يتناول يدها ويقبلها:

- روحي للدكتورة وطمنيني، وخلى بالك من نفسك.

تدلف خارج المنزل وتذهب إلى الطبيبة الخاصة بها لتأخذ تقارير مهمة، لتحاول إنقاذ جيان من مسالة الشرف تلك، فلقد تجاوز كل الحدود وطعنها في عرضها وشرفها. بالرغم أنها أخبرت زوجها أنها لن تذهب إلى ذلك المكان ولكنها ذهبت ولم تستمع لحديث زوجها.

تدلف عبر البوابة الكبيرة وتسير بخطوات مسرعة، لتمنعهم عما سيفعلون، وعندما دلفت إلى داخل الصرح، كانت جيان تهبط من أعلى درجات السلم وهي خائفة والفزع يأخذ منها مأخذه، وشحوب وجهها واصفراره بات جليًا للعيان.

تخبرهم أن ينتظروا، فالطفل طفله:

- استنوا، ابنك كداب يا عبد الجبار بيه، هادي بيخلف وكل حاجة والولد دا ابنه.

يحدجها بعينيه في شك:

- وإيه اللي يثبت؟

تناوله الأوراق التي أخذتها من طبيبتها، ليعلم الحقيقة:

- الأوراق اللي معايا دي.

يقف والده مشدوه ويدمدم بصوت عال:

- أنتِ اجهضت عيال ابني.

تفرك كف بكف في توتر وتجيب في خوف:

-مكنش ينفع يعيشوا، كانوا مشوهين، وعيال حرام.

يتدخل هادي ليمسكها من يدها ويهزها في عنف:

- أزاي أنتِ قتلتي عيالي يا نارين؟

تبتعد عنه وتواجهه بالحقيقة:

- أهو أعترفت أن الولد ابنك.

يخبرها منفعلًا وينطق بالحقيقة:

- أيوه ابني بس مش عاوزه مكنش المفروض يحصل حمل.

والده منصدم مما يحدث حوله وكيف لطفله أن يخدعهم بتلك الطريقة:

- إيه اللي بتقوله دا، أنت كنت هتقتل حفيدي؟

يصرخ في وجهه غاضبًا:

- أيوه كنت هعمل كدا لأني مش عاوز أطفال منها مش هحقق حلمك ابدًا.

يلوي شفتيه ويخبره مستفزًا له ولرجولته:

- أهو تحقق والحمدلله، الدور والباقي على اللي قتلت عيالك.

سار ناحيتها ووقف أمامها ونظر لعينيها مطولًا ومن ثم قال بصوت محزون:

- نارين أزاي جالك قلب تعملي كدا؟

تتحاشي النظر إليه وتخبره في خوف:

-الدكتورة قالت الولاد دول هيطلعوا مشوهين ولازم ينزلوا.

يقترب منها ويلطمها لطمة قوية على وجهها لتسقط أرضًا من هول اللطمة. تهرول إليها جيان لتبعده عنها في ثورة غضبه، وتدافع عنها وتضع ذاتها أمامه:

- سيبها يا هادي، حرام عليك.

تلطمه والدته على وجهه وتخبره منفعلة:

- أزاي تضرب واحدة ست دا اللي ربيتك عليه؟!

يشير والده إلى الحراس ليربطوا زوجته وزوجة ابنه، ليشاهدوا العرض الذي سيحدث بعد قليل وليحافظ على جنين ابنه بعيدًا عن غضبه، فهو يعلم أن ابنه لا يريد أن يحقق حلمه بوريث كل هذه الأملاك:

- اربطوا الاتنين دول.

تبكي جيان وتتوسل ليرحموا ضعف المسكينة التي أتت بها إلى هنا:

-حرام عليك يا عبد الجبار بيه، سيبوها، أنا السبب أنها جات.

تتحدث مع زوجها وتخبره في استعطاف:

- كفاية ظلم يا عبد الجبار سيبوا البنت.

يقترب منه والده قبل أن يغادر ويهمس في أذنه:

-خد حقك منها.

يتركهم مقيدين ويدلف خارجًا، دون أن يعير بالًا لما يمكن أن يصل به حال ولده وكيف سيتعامل، المهم أنه طفله المدلل.

يقترب منها بخطوات ثابتة وينزع حجابها ويمرر أصابعه داخل شعرها:

-شكلك أحلى من غيره.

تتوسل وتضم يديها إلى بعضهما في فيض من الدمع والخوف والرهبة والندم جميعها مشاعر مضطربة تشعر بها في هذه اللحظة:

-هادي لا من فضلك متسمعش كلام أبوك، يا هادي لا. أبعد عني متلمسنيش.

يتركها ويجلس على الكرسي المقابل لها:

-طيب هنتفق اتفاق، هتطلعي معايا ساعة واحدة، وهسيبك تمشي. إيه رأيك؟

تدور الأرض بها وتخبره في كبرياء:

- لا. مش هعمل كدا. مقدرش.

يضع ساق على الأخرى ويطلق ضحكة هادئة ومستفزة:

- طيب هديكِ فرصة كمان، حقيقة أم جرأة؟

تفرك كف بكف ومن ثم تجيب وهي تعلم أنه لن يدعها ترحل إلا إذا نال مراده:

- حقيقة.

يعلم جيدًا أنها ستختار حقيقة، ليسألها السؤال الذي يعرف إجابته بكل تأكيد:

- بتحبي جوزك يا نارين؟

تفكر مطولًا ومن ثم تهز رأسها بإيجاب، فينهض ليلطمها على وجهها مجددًا:

-كدابة، لو بتحبيه مكنتيش خدتي الوقت دا كله.

يجذبها من شعرها ويجرها خلفه على درجات السلم ليصل لأعلى نقطة ومن ثم يجعلها تقف:

-قومي أقفي.

تتوسل إليه وتحاول أن تستميل قلبه، لعل يكون به بذرة من الخير ما زالت نابضة. تحاوط يديها على جنينها:

-هادي من فضلك متعملش كدا، أنا حامل، من فضلك. ابني لا.

ومن ثم تردف ببؤس وعيون منتفخة:

- متكسرش فرحتنا، أبوس أيدك.

لم يهتم لأي من ذلك، ولم يرف له جفن وهو يقذفها من أعلى السلم لتتدحرج إلى أسفل، وهي تحاوط على جنينها خشية أن تفقده. بعد أن

استقرت في الأرض وكفت عن التدحرج. ذهب إليها وأحكم قبضته على شعرها. ليقطع صمته الذي طال لبرهة، ليخبرها ثائرًا:

- أنتِ قتلتي أولادي فاهمة يعني إيه؟

تخبره بصوت واهن وتتوسل إليه وتتضرع:

-هادي، سبني أبوس أيدك.

يقترب منها ليركلها في خصرها لتجهض جنينها كما فعلت هي بأطفاله. تتكور على ذاتها وتمسك خصرها في ألم وتلم بها أوجاع جميع من بالعالم. وتنظر نظرة أخيرة قبل أن تخر مغشيًا عليها.

يبتعد عنها ويجلس على الكرسي القابع أمامه ويهدأ كليًا ومن ثم يردف بصوت جهوري:

-هات الصندوق الزجاج من عندك.

يحضر شخص ما صندوق زجاجي به جرذان رمادية اللون، ومن ثم يخبر أحدهم أن يحضر دلوًا من المياه المثلجة، وحينما يرضخ لطلبه، يأخذ منه الدلو ويسكبه على الممددة أرضًا، لتصحو ترتعش وتضم ساقيها إلى وجهها وتنزوي في ذاتها. ليتحدث قائلًا غير مبال بها:

- اللعبة التانية، هتمسكي فأر من الفيران دي، يلا قدامك دقيقتين.

تتحاشي النظر إليه وتردف في صوت مبحوح:

- بس أنا بخاف من الفيران.

يطلق ضحكة عالية ومن ثم يخبرها بمكر:

- لو عاوزة تمشي من هنا يبقي لازم تنفذي التحديات دي.

تقف وهي تسير بخطوات عرجاء ومتثاقلة، تلتصق ملابسها بجسدها في وضع مخزي والدماء تسيل من بين فخذيها مختلطة بالماء، لتخبره أن ينظر بعيدًا وهي منكسرة:

- ممكن من فضلك تبص بعيد.

ليقهقه بضحكات متتالية:

- أخلصي يا نارين، أنا شوفت أكتر من كدا منك، عادي يعني متتكسفيش.

تشعر بالذل والهوان فتقترب من الصندوق في خوف واشمئزاز، ليردف قائلًا:

- Catch The Rat Baby.

تقترب أكثر فتكاد أن تفقد وعيها، ومن ثم يأتي من بعيد شخص يرتدي قميص مخطط مفتوح، أسفله تي-شيرت قطني لونه أصفر وبنطال جينز، عينان زرقاء وشعر أشقر وملامح أجنبية كوالدته تمامًا، يقترب منها ويهمس ليشجعها:

- متخافيش دا مجرد فأر.

تنظر إليه خائفة وتهمس بتمتمة:

-بس أنا خايفة يا عمار.

يتناول يدها ويشدد عليها:

-طول ما أنا معاك متخافيش.

تضع يدها داخل الصندوق وتحاول أن تسحب جرذ ما، إلى أن قام أحدهم بعض أصابعها فقمت بسحبه وهو عالق بيدها. لتخبره بألم:

-أهو أتفضل ممكن تسبني أمشي من فضلك؟

يصفق لها إعجابًا:

- برافو هايل، مكنتش أعرف أنه خلاكي شجاعة كدا، ما علينا يلا اللعبة التالتة. واضح أني هتسلي النهارده.

تصرخ في وجهه:

- بس دا مش عدل. أنا عاوزة أمشي.

يقترب إليها ويضع سبابته على فمها ليغلقه:

-أش، صوتك ميعلاش، أنتِ هنا مجبرة ومعندكيش حرية الاختيار.

يصمت قليلًا ومن ثم يردف:

- اللعبة بسيطة وأنت عارفاها ، طق طق؟

تجيب في خوف:

- مين بالباب؟

يضحك ومن ثم يجيبها:

- الأرنب جوجو.

لتستكمل الباقي من اللعبة:

- جوجو مين؟

يسير خطوتين للأمام ومن ثم يشير إليها ويضحك مجددًا:

- الخروف اللي وقع في المصيدة.

والآن لقد يقنت أنها يجيب أن تخوض اللعبة التالية وبدون أن تتحرك قيد أنملة وقد كان ما حسبت له، شخص يدلف ومعه مسدس من طراز قديم لتكون النهاية التي لا تستحقها.

يتناول المسدس ويفرغه من جميع الرصاصات ما عدا رصاصة واحدة، ويشير إليها بالاقتراب:

- تعالي، أنتِ طبعًا عارفة قواعد اللعبة دي، الروليت الروسي بالتناوب واللي هتكون الرصاصة من نصيبه هيموت وهتنتهي اللعبة.

يشير لها أن تمسك بالسلاح لتوجهه نحوها لتطلق في منتصف رأسها، تضع السلاح وتسحب الزناد ويصدر صوت اطلاق الرصاص ولكن فارغة، وظل بالتناوب إلى أن بقيت آخر جولة وكانت من نصيبه هو، صوب المسدس ناحية قلبه ومن ثم ابتسم وضغط الزناد، كانت تدعو ربها أن يأخذه إلى جواره ولكن الرصاصة الأخيرة فارغة كذلك.

لتتحدث حانقة:

- أنتَ غشاش.

يبتسم ويجلس هادئًا:

- هديك فرصة أخيرة ولعبة أخيرة للهرب، ودي سهلة المرادي، هيكون قدامك خمس دقايق تهربي فيهم، قبل ما حد من الحراس دا يجيبك تاني، حاولي تجري بكل قوتك، أهو بديك فرصة عشان متقوليش أني ظالم. أنا كريم جدًا معاك.

يضبط المؤقت ومن ثم يشير لها بالركض بنبرة مستفزة:

- Run Mary Run The Monster Is coming.

يردد هذه الكلمات بطريقة مستفزة، بينما تحاول الركض والنجأة بحياتها، تحاول أن تتحامل على ذاتها وتنسى أوجاعها، تركض بكل ما أوتيت من قوة.

يجلس على كرسيه، يخبر أحد الحراس قبل أن تنقضي الخمس دقائق:

-هاتها كافية كدا جري. أكيد تعبت المسكينة.

أمام البوابة وها هي ستضع قدمها خارجها ليبغتها شخص يكمم فمها ويجذبها للداخل مجددًا. وبهذا تودع أن تخرج في هذه اللحظة.

الفصل الخامس: ذكريات الماضي

يضع يده على فمها ويحملها بين ذراعيه لتحاول المقاومة والهرب.

تتوسل إليه وعبراتها تسيل مختنقة:

- أبوس أيدك سبني، أنا طلعت خطوة، بص طب اسمك طيب، يا رب بقا وحياة عيالك لو عندك عيال.

يسير بها بملامح جامدة وقلبه يتمزق ليخبرها بأسي:

- اسمي مايكل، مقدرش أسيبك في كاميرات مراقبة، لازم أرجعك جوه، أنا آسف.

تضم يدها وتخبره في رجاء، قد تفعل أي شيء فقط لتهرب:

-وحياة المسيح والعذراء سبني، أنا هعمل إي حاجة بس تسيبني، لو عاوز فلوس هديك بس سيبني.

يكمل المسير ويخبرها معتذرًا:

- آسف، مقدرش كان نفسي أسيبك، ومش هاين عليا أشوفك كدا، بس بيهددني بعيالي، ولازم أنفذ الأوامر.

تصمت وتبتلع لسانها، لقد تبددت فرصتها في الهرب الآن وستواجه مصيرها المحتوم، أيقنت أنه سيأخذ ما يريد سواء قبلت أم رفضت.

يعود بها الشخص الذي لاحق بها، وهو يحملها بين ذراعيه، ليخبره ولي نعمته أن يرميها على الأرض:

- أرميها وأمشي.

ينزلها بهدوء دون رميها أرضًا، لتقف أمام رب عمله، يهمس لها في شفقة:

- آسف، سامحيني.

ينهض رب عمله، ليلطمه على وجهه ويصرخ به:

- قولتلك أرميها يبقي ترميها، شكلك عاوز تتأدب، يلا زي الشاطر شايلها تاني وأرميها.

يقترب منها بيدين مرتعشة ويحملها هامسًا لها:

-آسف، غصب عني.

تومأ له بأن لا عليه، فليفعل ما يأمره به. ينصاع للأمر ويرميها كما أمره رب عمله، ليقترب إليه ويصك على وجهه، ليردف قائلًا:

-شاطر. يلا غور من وشي.

يغادر ذلك الشخص، ليقترب هو منها ويأمرها أن تنهض، فتحاول النهوض وتخبره في صوت متوسل:

- أبوس أيدك يا هادي، خليني أمشي، أنا معملتش حاجة ليك.

تصرخ به تلك المقيدة بعد أن بح صوتها:

-سبها يا هادي، حسبي الله ونعم الوكيل فيكم كلكم.

تردف والدته في عجز:

-يا بني سيبها منكم لله.

يقترب منها بخطوات هادئة، وقع أقدام حذاءه يصدر صريرًا مزعجًا، يجردها من عباءتها لتظل بمنامتها الخفيفة، تنفلت من تحت يديه، تجر أقدامها محاولة الهرب، تتوسل في رجاء وتصرخ في وجهه:

-هادي متعملش كدا أنا ست متجوزة، اللي هتعمله دا حرام، متعملش كدا أبوس أيدك لا.

يقترب منها أكثر ويشير لاثنان من الحرس بتثبيتها لكي لا تهرب ويتحدث بصوت يشبه الفحيح:

- نارين أنا بحبك، وأنت عملتي إيه؟ خونتيني .

تصرخ به، تحاول المقاومة ولكن دون فائدة فقوتها لا تضاهي الرجلان اللذان يحكمان قبضتهما على كلتا يديها:

- حب إيه أنت مختل عقليًا. اللي بيحب حد مش بيأذيه، مش بيذله قدام الناس، أنت متعرفش تحب أصلًا، أنت معندكش قلب.

يقترب ليضع يده على شعرها، ويقترب من وجهها، لتبصق في وجهه وتخبره في غضب:

- أبعد عني، ريحتك بتخنقني، الهوا اللي بتتنفسه بيخنقني، أيدك دي متلمسنيش. أنا بكرهك وبكره الأرض اللي بتمشي عليها.

يزيل بصقتها عن وجهه ليلمسها في أجزاء جسدها، بطريقة جنونية ويخبرها ضاحكًا:

- أهو لمستك، هتعملي إيه؟

تصرخ زوجته عليه وتخبره أن يتركها، يكفي جنونًا:

- سيبها يا هادي ورحمة أمجد يا هادي سيبها.

يذهب إليها بخطوات هادئة ويصفعها على وجهها ويحل وثقها ليجرها ويسحلها سحلًا.

يخبرها مستهزئًا:

- أمجد مات خلاص. هو فين أمجد، مش شايفه، أمجد فينك؟

تركع تحت قدميه وتتوسل إليه:

-حرام عليك، ابني هيموت. أمجد وصاك عليا أنت بتخلف بوصيته، حرام عليك سيبها، موت أمجد مغيرش فيك حاجة أنت اللي شخص وحش من البداية.

وفي المقابل تحاول نارين التحدث مع الحارسان وتنظر لهما بعيون منتفخة وجبين ينزف، لعلها تستميل قلبيهما ليتركوها تهرب:

-سبوني بترجاكم.

تنظر باستغاثة لأحدهم:

-ترضي حد يعمل كدا في بنتك أو مراتك أو أختك، أرجوك سيبني، سيبوني بالله عليكم، إيه منظركم وأنتوا ماسكين حد أضعف منكم وبتترجاكم عشان تسيبوها، لو خايفين على شغلكم، ربكم هيرزقكم وأنا مستعدة إديكم فلوس والله بس سيبوني، أزاي هتخلوه يتجرأ على حد أضعف منه، بترجاكم. زوجي مش هيسامحني.

يطأطؤوا الرأس ويغمضوا أعينهم ويشيحوا بها بعيدًا لتردف قائلة بنبرة ساخرة:

- واضح أن المروءة والنخوة انعدمت خلاص، مش هسامحكم.

يترك زوجته ليذهب إلى المثبتة على الأرض وينظر لها نظرات خبيثة:

- ودلوقت دورك.

تبصق عليه وتصرخ صراخًا لن يفيد بكل حال:

- أنتَ مش راجل، أنتَ إنسان وسخ.

يقترب منها بخطوات ثابتة ويجثو بجانبها:

-هوريك دلوقت راجل ولا مش راجل.

تخبره برجاء وتأن وتتوسل وتتضرع ليرحمها:

-هادي من فضلك لا، لا. متعملش كدا بترجاك. أنا آسفة والله مكنش قصدي.

تحاول جيان النهوض لتذهب إليه بخطوات عرجاء وجسد منهك لتصده عن ما يريد فعله وتحاول إنقاذ تلك الممددة بلا حول ولا قوة،

فيدفعها بعيدًا لترتطم بالطاولة وتخر مغشيًا عليها بعد أن خسرت طفلها، الذي حاولت الحفاظ عليه ولم تفلح.

ينزع قميصه القطني القرمزي لتظهر ندبة كبيرة بجوار قلبه ومن ثم يتحدث صارخًا:

- كله بسببك أنتِ، كل حاجة بسببك وبسبب حبك، ودلوقت هعيد أيامنا سوا بس الفرق أنه هيكون قدام الموجودين دلوقت. فاكرة لما كنت بتاخدي مهدئاتك يا نارين، أنتِ فاكرني غبي، أنا كنت عارف كل حاجة، خطتك أنك تخليني أحبك وكل الحاجات التانية فاكراها، زي ما عملتي خطة عشان تدمريني، عملت خطة عشان أجيبك هنا. الفرق بس أنك أتعالجتِ، دلوقت المتعة هتكون أكتر لأنك هتشوفي كل اللي هيحصل.

ومن ثم يتحسس تلك الندبة:

- فاكرة لما ضربتيني بالسكينة لما كنت نايم، كنت فاكرة أني موت مش كدا، وروحتي لعاصي لما رجع من السفر عشان تستخبي عنده مني، وفي الأخر استغلك في نوبة جنانك وخلاكي تشيلي اسمه وأتجوزك، ها دا أنت قادرة يا شيخة جمعتي بين الأخ وأخوه إزاي؟

تخبره أن يخرس:

-اخرس، عمار أشرف منك ومن أهلك كلهم، حرام عليك إزاي قتلته، وكان فاضل أسبوع على فرحنا، إزاي عملت كدا، في حد يعلم حد النشان في مكان عام وفي حد يعلم برصاص حقيقي، أنتَ اللي قتلته يا هادي ولصقت التهمة في بولا، أنتَ أزاي كدا.

تنفجر باكية في حالة يرثى لها:

- عاصي، يا ريتني كنت سمعت كلامك.

يحرك يده على وجهها ويمسح دموعها السائلة وينظر لها في شزر، لتردف متوسلة ومشاعرها مضطربة وتتصرف بهستيريا:

-أبوس أيدك لا، متعملش كدا. ابني وراح أهو، سيبني امشي. مش هقدر أبص في عيون عاصي تاني، أرجوك يا هادي لا. مش هيسامحني حرام عليك، كفاية.

يمرر يده في خصلات شعرها ويمسك قليلًا منه بين يديه:

-مينفعش تمشي بسهولة كدا، هو دخول الحمام زي خروجه.

تخور قواها وتخبره بجزع واضطراب:

- دا مش كلامك دا كلام أبوك، للدرجادي خلاك نسخة منه، أكيد القذارة دي متطلعش غير منه.

ومن ثم تردف في انفعال:

- صدقني مش ندمانة أني حاولت أقتلك، ولو الزمان رجع بيا، هقتلك برضو، أنا بكرهك وبكرهه كل حاجة فيك. أنتَ قتلته قدام عيوني إزاي عملت كدا؟

يقترب منها ويمسك فكيها بيده ويحكم قبضته ليتحدث في انفعال:

- أنتِ غبية قوي يا روحي، فاكرة أنك هتلعبي عليا لعبة سخيفة زي دي وهصدق، كان غيرك أشطر. أقولك حاجة أحلى، قتلت حبيبك عن قصد، قصدي اللي كان جوزك كان ممكن أبعد في اتجاه تاني بس للأسف، لما شوفتك غيرت رأيي. كنتِ شبه الملايكة، ودلوقت مجرد وساخة.

تصرخ في وجهه منفعلة وتهدده:

-عاصي لو عارف أنك قتلت أخوه، هيقتلك ومش هيرحمك.

يقترب أكثر منها ويضع يده على فمها، ليخبرها بلا مبالاة:

-ومين بس هيقوله، ما أنتِ قولتي كتير وهو مصدقكيش.

يصمت قليلًا ومن ثم يردف:

-متخافيش يا نارين مش هخليك تعيشي عشان تحكيله.

وجه ملئ بالكدمات تنساب دموعها حارة بدون توقف وقد استسلمت لقدرها:

-أقتلني يا هادي قبل ما تعمل إي حاجة، عارف الموت أهون بكتير، أنت كل مرة كنت بتعتدي عليا وتختطفني وتهددني أنك تقتل أمي الحاجة الوحيدة اللي مقدرش أعيش من غيرها، وكمان شوهت سمعتي وقولت أني عشيقتك وأن كل حاجة بمزاجي، ومكنتش بهتم بس دلوقت أنا عندي حياة وعندي حاجة أعيش عشانها، أرجوك مش هستحمل أعيش، أزاي هقدر ... هادي أبوس على رجلك طيب، حرام عليك مش هقدر أبص في عيونه والله مش هقدر، أرحم ضعفي من فضلك، أعمل أي حاجة، بس متعملش الحاجة دي، أقتلني بس متعملش كدا، أبوس أيدك لا. حرام عليك. أحلفك بالله طيب، أنا بترجاك، حرام عليك، مش هقدر استحمل ولا أتخطي بالله عليك لا. أنتَ أزاي انعدمت من قلبك الرحمة أزاي؟ أقتلني الأول بقولك، لأني مش هقدر أستحمل.

ومن تصمت قليلًا، لتردف في جزع:

-هادي بص سامحني طيب أنا معملتش حاجة تأذيك أنتَ اللي دايمًا بتأذيني أنا عملتلك إيه؟ حرام عليك. مش هسامحك ليوم الدين مش هسامحك.

يقترب ليصبح وجهه مقابلًا لوجهها:

- في الأول كنت بتسلي، بس دلوقت لما روحتي لحد تاني، حسيت أني بحبك. ولما يسيبك أبقي تعالي وأنا ساعتها يمكن أقبل بيكِ. دا لو قبلت، أنتِ ممكن تكوني عشيقة بس مش زوجة أبدًا، أنتِ أوسخ من أنك تكوني زوجة ليا، أو لأي حد تاني.

تنظر إلى الفراغ وتتجمد حواسها لتجد شخصًا واقفًا ومن ثم يقترب منها ويمسد شعرها:

- متخافيش يا نارين.

تشهق وتتحدث بصوت واهن:

- ألحقني يا عمار، ألحقني من فضلك، تعال خدني من المكان دا. كلم عاصي يلحقني طيب.

يمسد شعرها ويخبرها بحنانه المعتاد:

- أنا في خيالك بس يا نارين، مش هقدر أعمل حاجة.

تنتابها تشنجات عصبية ويرتعش جسدها وتتجمد أطرافها، ليأمر الرجلان اللذان يثبتنها بتركها، فهي لن تقاوم بعد الآن ولن تدافع عن ذاتها حتى.

يقترب منها وينال مراده بدون أن يرف له جفن، وسط توسلاتها وصراخها ونحيبها، و أنينها المبحوح، لا يهتم بكل هذا. ولا ازدياد نزيفها، فهو فلم يرحم ضعفها ولا أنه هتك عرضها أمام الموجودين لم يهتم لأي من ذلك.

يجرها خلفه بخطوات ثابتة، ويصعد بها إلى سقف الصرح ليقذفها من أعلاه، لينفذ رغبتها بالموت. فالأمنيات الأخيرة يجب تحقيقها، مهما كانت قاسية.

يهبط وكأن شيئًا لم يكن ويفك وثاق والدته ويخبرها بكل برود أعصاب:

-هالة هانم أطلبي الإسعاف.

تضربه والدته على وجهه وعلى صدره:

-أنتَ نسخة من أبوك، أمجد هو الوحيد اللي كان ابني، أنتَ شيطان مش بني آدم زي أبوك.

ينزع يديها عنه ويربت على كتفيها ويخبرها ببرود ولا مبالاة :

- طيب اهدي والحقيهم قبل ما يموتوا ويبقي ذنب في رقبتك.

ومن ثم يردف ساخرًا:

- ابنك من جوزك الأولني، صح؟ أنتِ فاكرني مش هعرف، وهتفضل الحدوتة الكدابة اللي كنت بتحكيها هي بس اللي هعرفها.

تلطمه على وجهه قبل أن يغادر:

- ربنا ينتقم منكم.

ويأتي يوم على الناس لا يبقون كما عهدناهم، يتبدلون كما تبدل الحرباء لونها وتتكيف مع بيئتها القاسية.

الحب أسمى من أن يتخذه البعض سبب لأفعالهم الشنيعة، أرني ذلك الحب وأنت تهين وتستحقر من تقول أنك تحبهم، فالواقع أنت شخص مقزز ومقرف ولا يعرف الحب لك أيما ديار.

بالمناسبة أري الكثير ممن يحالفون بغير الله كمثال: " ورحمة كذا أو وحياة كذا، أو الحلف بالأنبياء مثلًا" وهو الدراج في الحياة بشكل كلي ولكن لا يجوز القسم بغير اسم الله جل جلاله. هذا فقط مجرد تذكير لنا جميعًا.

الفصل السادس: فرحة مسمومة

تتصل والدته بالإسعاف لتدوي صفارات صوتها في أرجاء المكان بعد ثلاثين دقيقة مرت رتيبة...

يأتي المسعفين مهرولين لينقلوا السيدتين إحداهما لا يعرفون إن كانت ستبقى على قيد الحياة أم ستلفظ أنفاسها على أعتاب سيارة الإسعاف، يحاولون بقدر ما يستطيعون أن يجعلوها تتشبث بالحياة.

أما السيدة الأخرى ليست أفضل حالًا ولكن أصابتها ليست غائرة وحالتها ليست كارثية.

* **

بعد مرور ساعتين.

يتفقد ساعته ويجد أن زوجته تأخرت، يبحث عن هاتفه ليحادثها، وليطمئن على حالها، فلقد ذهبت للطبيبة وليس من عادتها أن تتأخر هكذا. يذهب إلى طاولة مكتبه ينتزع الهاتف النقال من عليها، ويضغط على لوحته، يذهب خارج المكتب لينصت لتصاعد رنين الهاتف الخاص بها من غرفتهما، يخبر ذاته أن الغبية تركت هاتفها وغادرت. يتذكر ما طلبته منه فيصعد على أدراج السلم لغرفتهما، ليجد علبة صغيرة زرقاء اللون فيلتقطها ويرى ما بها وهو يحدث ذاته:

-بعدين بقا يا نارين في حركات العيال دي.

يفتح العلبة ليجد بها ورقة مكتوب عليها:

-"حركات عيال ها، طيب أطلع بقا وركز في الدليل"

يصعد درجتين ليجد علبة أخرى ومن ثم يتأفف:

- أف عيلة صغيرة.

ليفتح العلبة مثل سابقتها:

-"شوفتك وأنت بتقول أف، أصبر عشان تأخد الزيتونة"

يصعد ضاحكًا ليصطدم في منتصف السلم بعلبة زهرية اللون يلتقطها، وينزع الغطاء عنها:

-"ضحكتك حلوة قوي يا أبو عمار"

في آخر السلم يجد دمية صغيرة وبجانبها علبة زرقاء ليفعل مثلما فعل سابقًا ويرى ما بداخلها:

-" هانت يا أستاذ لمبي، لم يتبقى سوى أن تخطو داخل الغرفة عزيزي الوسيم" "السر في غرفتنا"

يبتسم ويردف:

- طيب إيه الأوراق دي كمان. عيلة قوي. بقيت عزيزها الوسيم.

يدلف إلى غرفتهما ويحدث ذاته:

- طيب أهو وصلت للمكان المطلوب.

يجد ورقة صغيرة أمام الغرفة فينحني ليأخذها، ليجد مكتوب بها:

- " حوش غطاء العلبة على السرير قدامك"

يبحث عن العلبة ويجدها ليحدث ذاته:

- المفروض أحوش غطاء العلبة.

ينزع غطاء العلبة ليجد حذاء صغير، يحك أسفل ذقنه ويتحدث مستغربًا:

- إيه دا جزمتين صغيرين، مالها العبيطة دي؟

يزيل الحذاء من العلبة ليجد ورقة أخرى مجددًا:

-دا في ورقة كمان.

يلتقط الورقة ويفتحها ببطء ليقرأ ما بها:

-" ممكن تكون شايف دي حركات عيالي وعبيطة بس أنا مبسوطة وبتمني فرحتنا تكمل، طبعًا مستغرب ليه مبسوطة كدا لأنه هيكون ابننا أو بنتنا التانية وأول فرحة لأول بذرة الحب اللي بينا، ملحوظة أنا مش عبيطة أنا حبيتك بس، مع حبي نارين"

يقلب العلبة مجددًا ليجد ورقة أخرى ليقرأ ما بها:

-" ولو مستغرب فرحتي فدا لأني معرفتش أفرح بأول مولود لينا، كل حاجة حصلت بسرعة، كانت لحظة ضعف ما بينا بس صدقني مش ندمانة عليها، لأنه كان غصب عننا، وأنتَ لما عرفت أني حامل طلبتني من ماما أو عمتك. سامحني يا عاصي لأني بشوف فيك عمار طول الوقت، وكمان سامحني لأني وقفت العلاج لما عرفت أني حامل، العلاج هيأثر على الحمل وأنا عاوزة الطفل دا وهحافظ عليه وهعمل المستحيل عشان يجي الدنيا. ومتقلقش مش هيقل اهتمامي بعمار الصغير ابننا، لأنه هو اللي خلاني أتعالج عشانه، والله ما أعرف ليه بقولك كدا، بس خلى بالك من ابننا يا عاصي"

يغلق الرسالة لتدمع عيناه من تأثرهما بما كتبته لأجله ومقدار هذا الحب وبالطبع لأنها تحمل صغيره القادم في أحشائها:

-معقولة تكون حامل؟ يا الله، الحمدلله كرم ربنا كبير قوي، يعني ربنا بيديني وأنا مستهلش كل دا، ألف حمد وشكر ليك يا رب.

ومن ثم يردف متهللًا:

-لما هترجع هحضرلها مفأجاة، أنا أصلًا هشتغل عليها من دلوقت، وهعملها حاجة تفرحها، شكلي هبقي عبيط زيها.

يباغته صوت رنين هاتفه ليقع ما لا يحمد عقباه، ويصدم أن زوجته نقلت للمشفى. وفي حالة حرجة وخطيرة كذلك. لتنكسر فرحته وتبهت ملامحه، وتحل غمامة سوداء أمام بصره. يلتقط هاتفه وسترته البنية ويغادر مسرعًا ليصل إلى المشفى التي من المؤكد أن زوجته بها.
في طرقات المشفى الخانقة يهرول ويعدو، يسأل كل من يقابله عن زوجته وفي أي مكان هي، يجيب الجميع بالنفي فعن أي

شيء يتحدث ذلك المجنون؟ من أين لهم أن يعلموا عن زوجته، هل هم منجمون أو ما شابه؟
يذهب لقسم الطوارئ ويصرخ بهم أن هناك سيدة جاءت في حالة خطيرة منذ قليل، فأين غرفتها أيها الأوغاد ويسب ويلعن في ثورة غضبه. يحاول ممرض من الممرضين أن يجعله يهدأ، ويتفقد السجلات ليخبره بكل بساطة، أن هناك حالتين جئتنا منذ بضعة دقائق في الطابق الثالث، يمكنك تفقدهما.

تركه وحاول استخدام المصعد، ولكن المصعد مشغول لذلك استخدم السلم، وصل وهو يلهث إلى الطابق الثالث، يجد سيدة منزوية على ذاتها وتبكي بصوت مسموع ويظهر أنينها في طرقات الطابق محدثًا دوي صدى، اقترب منها وعرف أنها من هاتفته ليأتي هنا في عجل.

يحاول أن يتمالك أعصابه، فيخبرها بصوت مختنق:

- في إيه؟ نارين فين؟

تشير إلى غرفة ما وتخبره بصوت محشرج:

- في الأوضة اللي هناك دي.

يحرك نظره إلى حيث تشير ليجد لافتة مكتوبة بخط عريض" غرفة الإنعاش":

-قصدك في الإنعاش، أزاي دا حصل؟

تقص عليه نصف الحقيقة فحسب، فهي بكل تأكيد لن تخبره أن وليدها وفلذة كبدها، هتك عرض زوجته، أخبرته وحسب أنه دفعها دون قصد عن السلم، وأن زوجته حاولت الركض فصعدت لأعلى المنزل لترمي ذاتها من الخوف. يخبرها أن تتوقف عن الحديث، ويذهب لمحادثة الطبيب، ليخبره عن حالة زوجته فهو يشك أن في الأمر

كذبة وخدعة كبيرة، ليفاجئه الطبيب أن زوجته تعرضت للاعتداء الجسدي والتعذيب بشكل وحشي، وأن حالتها الصحية لا تبشر بخير، يصمت برهة ومن ثم يخبر الطبيب أن يحاول مجددًا، أن يفعلوا المستحيل لإنقاذها وحسب.

يتركه ويعود لوالدة ذلك الوغد القذر، ليخبرها في ثورة وغضب :

-متزعليش لما تلاقي ابنك ميت يا هالة هانم.

تتوسل إليه وتتشبث بأقدامه في رجاء:

- أرجوك يا بني لا. أبوس على رجلك يا بني.

ينحني ليرفعها من تحت أقدامه ويجلسها على الكرسي القابع أمامه، ليتحدث في قهر:

- لا أزاي يعني، كانت حامل بابني يا هالة هانم، وشوفي هما عاملوا إيه؟

ومن ثم يردف في أسي:

- متترجنيش ولا تمسكي رجلي ولا تركعي قدامي، أنتِ ست كبيرة ومينفعش تذلي نفسك، يمكن كدبتي عليا ومقولتيش الحقيقة، أنا فاهم أنك خايفة على ابنك بس أنا مش هرحمه.

تتساقط عبراتها بحرارة لتخبره برجاء وتمسك يده لتنهيه عما سيفعل بصغيرها:

- يا عاصي يا ابني أرجوك.

ينزع يدها ويتركها متشبع بالغضب والثأر، كل مشاعر الحقد والكراهية تكتنف في صدره معلنة عن ثورة لا نهاية لها:

- مفيش أرجوك، انتهى.

يتركها ذاهبًا لذلك الوغد لينزع رأسه عن جسده. بالتأكيد لن يذهب بمفرده فهو ليس برجل خارق ولا كومندو في الجيش ليواجه الحراسة الغفيرة، يهاتف حمزة ليأتي برجال الحراسة الخاصة به، ليخرسهم ليتواجه وجهًا لوجه مع ذلك الدعبيس القذر.

دلف إلى القصر برجاله وجميعهم يصوبون السلاح على بعضهم ليخبرهم قائلًا:

- اللي عاوز يموت يضرب رصاصة واحدة بس، كلامي مع صاحب البيت دا.

يشير إلى رجاله:

- أي حد يتحرك ولا يضرب رصاصة واحدة خلصوا على الكل.

ومن ثم يسأل:

- فين الزفت صاحب المخروب؟

يحضر أحد رجاله الخادمة لتخبرهم أنه في المكتب، منذ ساعات قليلة.

يدلف إلى غرفة مكتبه، فيجد بابها موارب، يجده جالس على الكرسي يدخن لفافة تبغ، ويعدل من جلسته ويهندم كنزته البيضاء، ليشير له بالجلوس والتروي، ليتحدث بنبرة هادئة:

-عدوتي مش معاك يا عاصي الموضوع برا عنك. ودي واحدة شمال، طلقها وأتجوز غيرها أو سيبها تموت، كدا كدا مش هتعيش كتير.

يقترب منه ليجذبه من تلابيبه وينهال عليه بالضرب مهشمًا وجهه صارخًا به:

-كانت حامل، كانت حامل. أزاي عملت فيها كدا؟ دي مراتي وشرفها من شرفي، ومش هسيبها.

لتقطر بضع قطرات من عينه ومازال يسدد له الضربات واللكمات ليردف في قهر، مرددًا:

- كانت حامل.

يدفعه هادي بعيدًا ليسدد له ضربات مدافعًا عن ذاته، ولكن قوته الجسدية لا تضاهي قوة خصمه، ناهيك عن الغضب والانفعال اللذان يعطيان للشخص قوة إضافية فيخبره بنبرة مستفزة ليثير أعصابه:

-شوفت حالتها إزاي، كانت بتترجني أسيبها.

يحكم عاصي قبضته على عنقه ليخنقه في ثورة غضبه:

-هقتلك يا هادي.

يلفظ هادي من فمه الدماء ويخبره بصوت ضاحك مستفز لتظهر أسنانه ملطخة بالدماء:

- كانت بتقولي ابني لا. وهي بتبكي وتترجأ عشان مموتش ابنها.

يمسك ذراعه ويقوم بلويه وسحبه لتنكسر وتتهشم عظام ذراعه ليجره منها خلفه على درجات السلم صاعدًا لأعلى:

-اللي زيك لازم يفضل يتعذب، الموت ليك رحمة وأنا مش هرحمك مش بالسهولة دي.

يخبره ضاحكًا مستفزًا له ليجعله يخرج عن طوره، دون أن يهتم لألمه:

-أنا ست متجوزة أرجوك متعملش كدا.

يأخذه إلى شرفة الطابق الأول ويقذفه منها وينظر له من أعلى بعد أن نفض يديه منه:

- مش هخليك تموت، بس هخليك تدوق اللي أسوأ من الموت، أنت قتلت ابنك وحتى مصعبش عليك، كل دا ميهمنيش، كل اللي يهمني ابني ومراتي وأنا مش هسيب حقهم.
يهبط لأسفل ليأمر رجاله بأن يضعوا ذلك الوضيع في إحدى السيارات، ليذهب به إلى المشفى ليجعله يتلقى العلاج فهو لن يجعله يموت، يظن أنه سينتقم منه بجعله على قيد الحياة.
غريبة جدًا هذه الحياة، حقًا غريبة وبشعة، مقدار الظلم بها يفوق وزن جبال العالم أجمع.

يأخذه للمشفى ويقذفه تحت أقدام والدته، ليخبرها بغيظ وقهر:
-مش هقتله بس مش هخليه يرتاح.
تجلس أرضًا، تتفحص ولدها المغشي عليه، تمسح الدماء من على وجهه وتستمع لنبضات قلبه المضطربة، تضمه إلى صدرها صارخة بأعلى صوت لها لعل أحدًا ينجدها :
- الحقونا.
ينحني ويخبرها أن تهدأ:
-متخافيش هبعت للممرضين دلوقت عشان يعالجوه، سيبته عشانك، وهطلب مقابل دا قريب جدًا.
تنهمر دموعها على ترهلات وجهها لتصنع الدموع حفرًا متموجة وتخبره في رجاء:
- اطلب اللي عاوزه بس ابني يعيش.
يبتسم ابتسامة ساخرة ومؤلمة في الحين ذاته:
-ابنك اللي معرفتيش تربيه.
يهرع الممرضين ليأخذوه بعد أن أحضرهم عاصي ليعالجوا ذلك المختل، فحسب من أجل أمه، هي الوحيدة التي شفعت له، لولاها لأفرغ مسدسه في رأسه وأراح البشرية منه.

تأتي ناقلة طبية لتأخذه إلى غرفة الفحص، ليتم فحصه وتلقي العلاج اللازم. وتوفير جو مناسب للشفاء.
يا للعجب حقًا غريب، كنت أظن أن العين بالعين، والسن بالسن، لم أدري أن هناك أيضًا القلب بالقلب، والرحمة بالرحمة والخوف بالأمن، والشح بالود، والذي يعطي الأمان هو أكثر إنسان يفتقده، الذي يأمن هو أكثر إنسان يحتويه الفزع.
المشكلة أن الإدراك يأتي متأخرًا جدًا، عندما ينتهي كل شيء.

الفصل السابع: محاولة بائسة

بعد عدة ساعات تستفيق جيان وهي تحملق إلى أنبوب المغذي الذي صار متصلًا بوريدها، تحاول الحراك فلا تستطيع فجسدها مخدر ومرهق وكل عظمة بها تنزف ألمًا. وجهها ملئ بآثار اللطمات، وبعض الكدمات. تلتفت ببصرها فتجد والداها جلسان بجانبيها.
حلما رأتها والدتها تفتح جفونها إلى أن باغتتها بالأسئلة:

-إيه حصل يا بنتي؟
يتحدث والدها منفعل:
- هو اللي ضربك بالشكل دا؟
ترتمي في حضن والدها باكية وتتحدث بصوت مجهد:
-موت ابني يا بابا، وشكك في شرفي قبل دا كله، بصي يا ماما أهو ضربني مش هو دا اللي كنت مستنياه.
تشهق ومن ثم تردف قائلة:
- كنتِ بتقولي استحملي عشان متهديش بيتك بأيدك، إيه يعني عصبي، إيه يعني بيشرب، إيه يعني بيعاملك وحش، إيه يعني بيقولك كلمتين وهو متعصب متعمليش حكاية، المهم أنه مبيمدش أيده عليك، أهو يا ماما. شايفة حالتي ومبسوطة دلوقت؟
تربت والدتها على ظهرها وتخبرها بندم:
- سامحيني يا بنتي.
يحاول والدها تهدئتها:
- وسامحيني أنا كمان، محسبناش الحسبة صح.
تكفكف دموعها وتردف في انهيار:
- حسبتوا محسبتوش، خلاص كل حاجة انتهت.
تحاول والدتها التهدئة من روعها، وتخبرها أن تكف عن البكاء:
-كفاية عياط يا بنتي، بالله عليك.
تطرح سؤالًا بصوت محشرج من كثرة الدمع:
- معيطيش أزاي بس يا ماما، أنت مشفتيش منظر نارين مشفتيش عملوا فيها إيه؟
تسأل والدتها في قلق:
- مالها حصلها إيه وإيه جابها؟!

تجيب في ندم وكدرٍ وما زالت دموعها تنهمر مجددًا:
- أنا السبب يا ماما أنا السبب، كنت محتاجاها تساعدني، لما دمرتها.
تحتضنها والدتها وتضمها إلى صدرها لتنعم بقليل من الأمان:
-يا بنتي أهدي متعيطيش بقا، متقطعيش قلوبنا.
تشهق باكية، تبدو بشعة في بكاءها:
-مش قادرة معيطش يا ماما.
يتأخذ والدها قرارًا نهائيًا بالانفصال عن ذلك الشخص الحقير والذي لا يمتلك أيما ذرة رجولة:
-خلاص يا جيان يا بنتي، أظن كدا مالكيش عيشة معاه تاني.
تضرب والدتها على صدرها لتتحدث في جزع:
-قصدك تطلق لا مش هيحصل.
ينفعل والدها على والدتها ويخبرها أن تصمت وحسب:
-أخرسي بقا، مش شايفة حالة بنتك، هترتاحي لو جتلك ميتة في يوم، خلاص دا قراري النهائي، أحنا مستورين والحمدلله وجيان بنتي ألف مين يتمناها.
تحاول النهوض ومغادرة سريرها في وهن:
-أنا هروح أشوف نارين.
تمنعها والدتها وتزغر لها بعينيها :
-تشوفي مين اقعدي، أرتاحي الأول.
يربت والدها على كتفها ويخبرها بنبرة حانية:
-شوفيها بكرا، حاليًا أرتاحي.
تحاول النهوض في إصرار، فهي تريد الاطمئنان على حالة صديقتها التي ذلها زوجها وأهان كرامتها:
- مقدرش لازم أطمن عليها.

يضع قدميها على الفراش مجددًا، ليشير إليها أن تبقي في فراشها، حلما يتأكد أنها بخير:
-استني هسأل الممرضة عن حالتك الأول.

يتركهما ويدلف خارج الغرفة ليرى أي ممرضة أو أي شخص من طاقم التمريض ليستفسر عن حالة ابنته، يركض هنا وهناك ويجد أن المشفى في حركة متزايدة وأن الجميع يركض في أرجاء المشفى. يهتدي إلى ممرضة تقف بعيدًا، يذهب إليها بخطوات مسرعة ويسألها عن حال طفلته، فتخبره أن حالتها الصحية جيدة ولكن لا يمكنها النهوض الآن، يمكنها المغادرة بعد يومين على أقل تقدير. يشكرها ويذهب إلى غرفة طفلته ليخبرها أن تستريح وأن الحركة قد تضرها أكثر مما تنفعها:
-جيان يا بنتي مينفعش تشوفيها دلوقت، ارتاحي ويمكن تفوق وتجيلك هي.
تخبره بانصياع وتستكن في موضعها:
-حاضر هستني، أخف شوية وهروحلها.
...
يقف رجل بسترته البنية، يضع الهاتف على أذنه ويتحدث بالهاتف بصوت رخيم، وجهه ممتقع علامات البأس تحتل قسماته:
-خالد تقدر تخترق كاميرات المراقبة وتجيب تسجيل معين.
يخبره الطرف الآخر، بنبرة عاجزة:
-صعب يا عاصي بس هحاول.
يضع يده في جيبه ويتحرك قليلًا ويخبره بجدية:
- خليه معاك، مش عاوز أشوفه، لو قدرت يعني تجيبه.
خالد مطمئنًا له، وهو حقيقة لا يعلم ما يفعله:

- متقلقش بعون الله، ثقة في الله نجاح.
يلتفت يمينًا ويسارًا:
- ربنا معاك. بس بسرعة يا خالد قبل ما يتمسح.
يخبره بصوت واثق:
- وحتى لو أتمسح متقلقش هدخلك على سيستم الشركة وأجيبه برضو، بس هاخد وقت.
يدعو له ومن ثم يغلق الهاتف ويضعه في جيبه:
-ربنا يعينك يا خالد.

يذهب بخطوات متثاقلة إلى غرفة العناية المركزة ويقف أمامها، يضع يده على بابها ويردف في صوت مقهور:
- قولتلك متروحيش يا نارين، أنتِ مش هتنقذي العالم.
تأتي خلفه سيدة وتربت على كتفه وتخبره في حنان:
- عاصي يا ابني، متقلقش هتكون كويسة.
يخبرها ضعيفًا ومنكسرًا، تربيتها على كتفه يؤلمه، يقرح جروحه لا يعالجها، ويدمل قلبه:
- ابنها مكملش سنتين، هعرف أربيه إزاي لو حصلها حاجة، وأنا مش عارف حالتها مش مستقرة.
تربت على كتفه في حنوٍ وتخبره أن يهدأ:
- أهدأ يا عاصي.
لا يستطيع التحمل بعد ذلك، ينزع يدها ويخبرها منفعلًا محذرًا:
-أهدأ أزاي، هالة هانم من فضلك يا ريت تاخدي جنب وتبعدي عني، ابنك السبب في حالة مراتي.
يترك المكان ويهرع باحثًا عن الطبيب المختص، ليجده يستعد ليدلف إلى غرفة العمليات في خطوات سريعة ليستوقفه في جزع:

-دكتور. نارين كويسة؟
ينظر له بخيبة أمل وعجز، يأتي وقت وحتى الطبيب يعجز وتقل حيلته:
-أحنا حاولنا نوقف النزيف بس للأسف هي تعرضت لنزيف داخلي وكمان هي مش بتستجيب، ولو فضلت أكتر من كدا، مش عارف أقولك أزاي، بس حاول تكون قوي.
يخبره منفعلًا ومن ثم يهدأ ويخبره في رجاء:
-لا متقولش الجملة دي، متقولش خليك زفت، قصدي حاولوا تاني طيب.
يربت الطبيب على كتفه ويخبره بشفقة:
- بنحاول على قد ما نقدر، شد حيلك.
تتكور الكلمات في حلقه لتنطلق غصة صغيرة ومن ثم يسأله:
-ممكن أشوفها؟
يخبره الطبيب متأسفًا أنه لا يستطيع:
-للأسف هنقلها للأوضة العمليات دلوقت.
يخبره برجاء ونبرة محزونة:
- هبص عليها بس، من بعيد.
الطبيب مقلبًا كف بكف:
- روح، بس عقم نفسك في البداية. وخليك بعيد عنها.
يهز رأسه في إيجاب ويفعل مثلما أخبره الطبيب، يرتدي المئزر الطبي ويدفع باب غرفتها، يقف بعيدًا ليرى وجه مهشم، جروحه تدمي، يدان مشوهة، جسد ممد في وسط الأجهزة، أجهزة كثيرة، قناع الاكسجين يحتل وجهها الدامي، أصوات الأجهزة تصدر صوتًا رتيبًا ومزعجًا، يحتل ذلك الصمت الموحش صوته وهو يتحدث معها، ناظرًا لها بقلب مذبوح:

-مكنتش حابب أشوفك كدا، كنت هحضرلك مفاجأة وكنت هعمل حاجات كتير عشانك. نارين متسبنيش من فضلك، قولتلك مش هسامحك لو حصلك حاجة، بس أنا سامحتك، أنا عارف أنك سامعني، ابنك محتاجك وأنا كمان. أرجوكِ متعنديش معايا.

يقف برهة ليباغته الطبيب ويخبره أن يغادر فورًا، فلا فائدة من وجوده هنا بأي حال، ينصاع لأمره ويلتقط هاتفه من جيبه ليتحدث مع شخص ما مجددًا.

في نبرة جامدة يتحدث:

- آدم عاوز أعمل بلاغ وفورًا.

يخبره الطرف الآخر بهدوء:

- تحت أمرك

يتمتم قائلًا:

-دي ناس واصلة في البلد.

الطرف الآخر غير مهتم، بالنسبة له" لا أحد فوق القانون" لا بأس البلهاء كثر، وفي جميع بقاع الأرض ستجدهم:

- مش مهم قول مين؟

يردف بصوت مغتاظ:

- هادي وأبوه عبد الجبار.

يسأل آدم في استفسار:

-عاملوا إيه؟

يخبره بصوت متعب والكلمات تتحجر في حنجرته، كيف يخبره عما فعلوه بزوجته، من الصعب جدًا أن تخبر أحدهم أن كرامتك تم غمسها في القار:

- حاولوا يقتلوا نارين، وقتلوا ابنها اللي في بطنها، قتلوا ابني قبل ما يجي للدنيا.

يرد عليه بصوت مشفق ومحزون:

- لا حول ولا قوة إلا بالله يا رب، هعمل اللي هقدر عليه.

يخبره برجاء ليسأل عن أمهر حراجة يعرفها، وصديقة طفولته كذلك:

-سيرين، مش هتنزل البلد يا آدم، حالة نارين معقدة جدًا. والدكاترة مش عارفين يعملوا إيه.

يخبره آدم مطمئنًا:

-هكلمها حاضر. هو هادي فين؟ عشان أبعت حد يجيبه.

يرضي فضوله ويخبره هادئًا:

- بيتعالج في المستشفى.

يخبره آدم محذرًا:

-أنتَ غلطت يا عاصي كدا. وموقفك هيكون صعب قانونيًا، أحنا مش في غابة عشان تأخد حقك بدراعك.

يخبره منفعلًا وغاضبًا:

- مقدرتش يا آدم، أنتَ مشوفتش حالتها، كانت حامل يا آدم، ابني اللي فرحت لما عرفت أن ربنا كرمنا مات، عاوزني أعمل إيه؟

ومن ثم يردف في سخرية:

-القانون بتاعك دا بينصر الأسياد اللي زينا، ويعدم الغلبان، طيب ودلوقت هينصر مين الحق ولا الباطل، هينصر اللي معاه فلوس أكتر، المشكلة أني مش هقدر أقتله عشان أمه.

يخبره معاتبًا:

- أتمنى ضربك له ميأثرش على القضية. خليك واثق في القانون يا عاصي.

القانون الأداة التي تحكمنا، من المفترض أنها تخدم الفقير والغني ولكني أجدها أكثر تحيزًا للغني أكثر مهما كان طالحًا، بيد أن القانون لا ينصف الجميع. وبالتحديد جميع الفقراء والمعدمين.

في مكان آخر وتوقيت آخر
لندن- الساعة التاسعة مساءً بتوقيت غرينتش.
وبالتحديد في تيت مودرن ذلك المكان الساحر على ضفاف النهر، معرض للفن والجمال والرقي. جو شاعري بمعني الكلمة، صوت المياه وهي ترتطم بالحاجز الحجري بانسيابية، الصمت المطبق، أشجار أعياد الميلاد المزينة فها هو قد اقترب كانون الأول "ديسمبر"، وسيضحى تشرين الثاني "نوفمبر" ماضيًا بعد بضعة أيام، لينقضي آخر شهور الخريف لتحل عاصفة الشتاء ومطر الثلوج، لتتناهي الاصقاع في جميع الأنحاء، معلنة السبات الشتوي لجميع أنواع الأحياء.
طاولة عليها شموع وباقة من زهور النرجس البنفسجية ذات الرائحة العطرة. شخص يرتدي بذلة رمادية ويمسك بيدين سيدة ترتدي فستان زهري اللون بنقوش زهرة التوليب الزرقاء، تضع على عينيها عصابة حمراء اللون، يجعلها تستند عليه ليصلا إلى الطاولة المرادة.
تزل إحدى قدميها فتتشبث به وتخبره في حنق:
- هقع يا جاد مش هتبطل حركاتك دي.
يمسك بيدها ويحملها بين ذراعيه:
- لا مش هبطل وأصبري.
تخبره في نفاذ صبر:

- ها قربنا.
يخبرها أن تهدأ وتصبر:
- اصبري بس. أنت غرمانة حاجة.
تضع يدها خلف عنقه وتتشبث به:
- يلا استاذ ممتاز.
ينزلها رويدًا رويدًا، ينزع العصابة من على عينيها ويخبرها أن تتروى في فتح عيونها البندقية:
-عيون وقلب استاذ ممتاز، فتحي واحدة واحدة.
تقفز فرحًا وتعنقه وتخبره بفرحة غامرة:
-الله الله عشا رومانسي وضوء الشموع وشغل جامد بقا وكدا.
يسحب كرسيًا ويجعلها تجلس ومن ثم يجلس مقابلها ليخبرها بعيون تشع بالحب وهو يشير إلى الشموع:
- طفي الشموع مين قال محتاج أشوفك بالعيون.
تضع يدها على وجهها ويتورد خدها، وربما هي حمرة الخدود التي تضعها لست أدري، ماذا تورد الخدود تعبير مجازي عن الخجل وليس حرفيًا:
- كفاية حب بقا.
يمسك بيدها ويضعها على قلبه:
- يا عامرية قلبي جن بحبك فماذا أفعل، يا ليتني قيس لأنشدك كل غسق شعرًا.
تبتسم وتخبره بحب متبادل:
- بحبك يا زوجي العزيز.
ليرد عليها بحب مماثل:
-وأنا بحبك يا زوجتي العزيزة، اللذيذة.
تطلق ضحكة من ثغرها، فهذا السجع مضحك:
-ضحكت بجد.

يخبرها بكل حب وهو يقبل يدها:
-أعيش وأضحكك. يا فيروزتي.

الفصل الثامن: تحقيق

بعد مرور يوم واحد.
مر ثقيلًا وصعبًا، رتيبًا وغريبًا بعض الشيء، الأحداث تتراكض كالعداء في السباق، الحقيقة ربما تنتصر وربما لا. لا أحد يعلم، نحن نسير مع التيار وحسب، سواء شئنا أم أبينا سنخضع للروتين اليومي، سنفعل كل شيء بلا مبالاة أو ذهن رائق كالآلة فقط ننفذ التعليمات.

في المشفى أمام غرفة إحدى المرضى يطرق شخصًا ما على بابها، ليصدر صوت من الداخل أن يتفضل من يطرق. فقد عدلت من جلستها وحجابها منذ برهة.
يدخل من كان يطرق ومعه رجلان أحدهما يحمل ملفًا والآخر مكتوب وقلمًا ليدون به فيما يبدو إفادتها.
يتحدث من كان يطرق الباب بشعره الأسود وعيناه السوداء بسترته الزرقاء وهيئة رجال الشرطة، مسدسه بجانبه الأيسر:
-السلام عليكم.
لترد عليه جيان قائلة وهي تطأطأ الرأس:
-وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. خير يا فندم.
يتحدث بصوت جامد، يحاول أن يكون مطمئنًا لها:
-أنا جاي أخد أقوالك، لأنك شاهدة رئيسية، وكمان أنتِ مضرورة.
تخبره بانصياع:
- حاضر يا فندم.
ليتلفت للذي معه الدفتر ليأمره أن يسجل أقوالها بالحرف الواحد، تقص عليه ما حدث لا الحقائق التي قالها الطرفان، فقط أخبرته أنهم قتلوا ابنها و قاموا بضرب صديقتها وأسقاط جنينها والتعدي عليها، فقط ولم تخبره بألعاب المصير ولا الذل الذي عانته صديقتها، ولا جريمة القتل التي دفنت ولا حقارة زوجها، فقط كلمات قليلة تكفي.
يتركها تستريح فقد انهارت عصبيًا وهي تتحدث لأن الذكرى باغتت روحها، شعرت وكأنها تشاهد من جديد ما حدث معهم.
..
في داخل غرفة العمليات.

صراع للبقاء، صراخ الأطباء بالممرضين، نبضات قلب المريضة تنخفض، فقدان الدماء مازال مستمرًا، يحاولون بقدر ما يستطيعون، إذا أقفوا نزيف الرحم، سيزيد تجلط الدم بالدماغ وربما تنفجر بعض الأعضاء الحيوية. يتنفس الطبيب المختص الصعداء، ويخبر الفريق الطبي بحاجتهم لمتبرعين بالدماء فالحالة تفقد الكثير منها، حقن منع النزيف لا تجدي نفعًا وأن زادوا الجرعة سيحدث الخلل وستتدمر الأعضاء الداخلية الأخرى. يخبرهم أنهم سيحاولون إزالة تجلط الدم بالدماغ أولًا ومن ثم سيحاولون تقليل النزيف بقدر ما يستطيعون. يتشاورون في أن أي حركة خاطئة ستفقد السيدة الأمل في الأنجاب والحياة بشكل عام. وعلى كل حال ستفقدها، فلا داعي للحذر كثيرًا.

التوتر في أرجاء غرفة العمليات، فأن خسروا المريضة، ستكون خسارة كبيرة لهم، ولن يأخذوا مبالغ طائلة، بالنسبة لزوجها لن يفعل شيئًا سوى أقامة مراسم وداعها، لقد حاول بكل ما أوتي من قوة. فلا طائل من غضبه، عليه أن يستسلم في حال خسرها.

بعد ست ساعات كاملة.

يستطيع الفريق الطبي أن يوقف النزيف مؤقتًا، فالحالة لا تستجيب وكأنها تريد مغادرة هذا العالم، في حين أن كثرة مضادات سيولة الدم جعلتها تدخل في غيبوبة.

.. يقف خارج غرفة العمليات منتظرًا أن يخرج الطبيب، ليخبره في جزع:

- دكتور يعني مفيش أمل الحالة تفوق. عاوزين ناخد أقوالها؟

ينزع الطبيب كمامته الطبية ليجيب في أسف:

-الحالة متضررة جدًا يا آدم. وللأسف دخلت في غيبوبة، المشكلة أن في نزيف في المخ ودا غير النزيف الداخلي،

يؤسفني أقولك أن الحالة لا تبشر بخير. بس عاصي مصمم نعالجها بس هنعالج إيه ولا إيه؟ دا محتاج معجزة عشان دا يحصل.

..

يدلف آدم إلى غرفة مجهزة طبيًا ويجد شخصًا مضجع على الفراش ويبدو من الجبيرة التي يرتديها أن ذراعه قد كسر.

يسير إليه بخطوات ثابتة ويسأله في نبرة جادة:

-ممكن تقولي اللي حصل؟ وعملت كدا في مراته ليه؟

يحرك فكيه بيده ويبتسم بمكر:

- معرفش أنا اللي مفروض أقدم بلاغ مش هو، شوف بهدلني أزاي؟ أعمل إيه لو كانت مراته مش قادرة تنسي ماضينا سوا؟

ينفعل آدم ويمسكه من تلابيب قميصه:

- أنت إزاي تجرأ وتقول كدا، أنت المسؤول عن حالتها وكمان بتطعن في شرفها. أنت إيه؟

يقترب هادي من أذنه ويهمس له في نبرة مستفزة وباردة:

-كانت غلطة بريئة وبالمناسبة يا آدم أنا مش هعترف بحاجة، متتعبش نفسك.

كاد آدم أن يضربه ويسدد له لكمة على وجهه لأنه قام بإخراجه عن طوره ولكنه استوقفه قائلًا:

-رجل شرطة ينفعل ويضرب مواطنًا بريئًا.

ومن ثم يردف ضاحكًا:

-أستنى أمر نقلك يا آدم باشا.

يبتعد عنه آدم محاولًا أن يضبط أعصابه:

- كان مفروض فصل رأسك عن جسمك مش ضربك بس.

ينظر له مبتسم ويتحدث في تحدى وجرأة:

-غلطان كان عملها، لأن هو اللي هيتذل مش أنا. وأفتكر كلامي كويس يا آدم هو هيتذل وهيتمنى الأرض تنشق وتبلعه والأيام الجاية هتثبتلك، واللي عمله معايا هيتأخد ضده، سكوت والدي مش ضعف، هنربيه بالذوق.

يتركه آدم ويغادر منفعلًا من استفزازه، ومن كم الحقارة التي يتمتع بها، قد يمتلك ملامح وقسمات ملائكية ولكنه شيطان حقيقي.

يذهب إلى قسم الشرطة ليستجوب الخدم والحراس، الذين كانت أجابتهم مكررة ألا وهي (لا نسمع، لا نر، لا نعرف، لا نتكلم).

يضع يده على جبينه ويسأل حارس القصر العظيم:

-عم نصار أنت كنت فين في الوقت دا؟

يخبره بتوتر وخوف، يدان ترتعش من فعل الزمن:

- يا باشا أنا كنت في البلد.

يحاول طمأنته آدم ويخبره راجيًا:

- يا عم نصار متخافش محدش هيعملك حاجة أنت شاهد بالله عليك الحالة خطيرة، كل كلمة هتحدد مصير بني آدم.

يفرك يديه ببعضهما ويخبره خائفًا:

- قولت كل اللي أعرفه يا بيه.

آدم بتنهيدة متعبة ومرهقة:

- واضح أنهم خرسوهم ومش هيتكلموا.

يصرفهم ويرجع برأسه وجسده إلى الوراء، مفكرًا في هذه المعضلة، الجميع خائف والخوف يحكم. لا يوجد سوى شاهدة وحيدة، الأمر معقد وشائك جدًا، والدة الفتى غادرت البلاد، لسبب مجهول لا أحد

يعلمه، ولكنه واضح للعيان يريدون مغادرة الشاهدة الثانية لتصبح القضية ضعيفة وربما لا تصبح هناك قضية من الأساس.

... الساعة الثانية ظهرًا بتوقيت القاهرة.

نهار أواخر تشرين الثاني "نوفمبر"، الشمس الدافئة في هذا الوقت بالتحديد، أمام المطار يذهب آدم ليستقبل أحدًا ما. ينتظر هذا الشخص، يمسك لوحة بيده، يلمح الذي ينتظره من مسافة قريبة فيقف مكانه إلى أن أتى يجر حقيبته خلفه ويمشي بخطوات ثابتة، يرتدي نظاراته السوداء، يهندم معطفه البني الطويل، ويمسد شعره إلى الخلف. يأخذ نفسًا عميقًا كأنه يرتوي من هواء بلاده، ومن ثم يتحدث بلكنة إنجليزية:

- ها قد عدت إلى بلدي الحبيب.

يقترب إليه من أتي لاستقباله ليخبره في ترحيب:

-أهلًا سيرين.

لترد عليه بلهجة مصرية:

- أهلًا آدم، بتعمل إيه هنا؟

يهز كتفيه هزة خفيفة ويخبرها بنبرة هادئة:

-هستقبلك يعني هعمل إيه؟

تسأله بنبرة جامدة:

-الحالة اللي هستلمها شكلها إيه؟

يخبرها بحزن مشدوه:

- للأسف يا سيري، الحالة مفيش أمل منها.

تضرب على كتفه وتخبره بنبرة إنجليزية:

- أوه هذا ما أفضله التحدي يا آدم.

تنطلق من ثغره ابتسامة هاربة ليخبرها بودٍ:

- متغيرتيش يا سيري.

تردف بذات اللكنة:
-ولا أنت. آدم.
يأخذها في سيارته، ليست السيارة الكاهنة بل سيارة جديدة على أحدث طراز، يضع حقيبتها في السيارة ومن ثم يفتح لها الباب لتجلس بجانب السائق، لتغلق الباب وتفتح باب المقعد الخلفي لتجلس وراءه وليس بجانبه، لتخبره أن ذلك أفضل. يحتل الصمت وقتًا طويلًا بينهما، فهي قامت بإحراجه بفعلتها تلك، ولكن بعض الجروح تبقي غائرة ولا تشفى حتى بمرور الوقت. يصل إلى المشفى فتترجل من السيارة وتشير إليه بالرحيل، فهو يعلم أنه سيوصل حقيبتها إلى والدتها، بدون أن ينبس أحداهما بكلمة واحدة.
.. تدلف إلى المشفى لترى أين تلك الحالة التي يبالغون في وصفها، فهي تظن أن الحالة ربما ليست بهذه السوء، تسير في الطرقات إلى أن يقابلها الطبيب المختص فيرحب بها بلكنة إنجليزية وهو يمد لها يده ليصافحها:
-أهلًا دكتور سيرين.
تتلاشى يده وتخبره بنبرة جامدة وتتحدث بذات اللكنة الإنجليزية:
- أهلًا، أين الحالة؟
يحاول السير أمامها ليريها الطريق في حماسة:
- في غرفة العناية. سأريك الطريق.
تستوقفه بيدها قائلة:
-لا، سأفعل ذلك بمفردي.
تتركه وتسير بمفردها ليردف الطبيب في حنق بلهجته المصرية:
- مغرورة، هو كل اللي سافر برا هيعمل نفسه دكتور.

تعود إليه من جديد بخطوات ثابتة لتخبره في ثبات ليصفر وجهه ويمتقع:

-على فكرة بتكلم وبفهم مصري كويس جدًا، وأبوه مغرورة بس أعمل زيي أنت وسافر. وأنا مش بعمل نفسي دكتورة أنا فعلًا دكتورة.

تربت على كتفه وتتركه محرجًا، يشعر كما لو أن الدنيا أضحت في حجم حبة البازلاء من كثرة إحراجه، يستمر إحراجه فقط دقيقتين ومن ثم يذهب ليتفقد المرضى وهو يتأفف من تلك المصائب التي تقذف إليه من الخارج، فيصرخ في طاقم التمريض لأنهم يتسامرون ويتركون نوبات عملهم. وليفجر بهم الضغط من تعرضه للمهانة من طبيبة وقحة تظن أنها عندما سافرت للخارج أنه لا يوجد أطباء غيرها، تلك الوقحة كيف تحرجه هكذا؟ يبدو أنهم في الخارج يتعلمون الوقاحة ويأتون إلى بلادهم ليمارسوها على أبناء بلدهم الأبرياء والمعدمين والذين لا حول لهم ولا قوة.

الفصل التاسع: حالة خطيرة

تدلف سيرين إلى غرفة الحالة التي من المفترض أنها ستقوم باستلامها، تتفحص الأوراق الخاصة بها، وتستغرب كيف لتلك الحالة أن تظل على قيد الحياة بكل تلك الإصابات والأضرار الجسيمة. تتفحص المريضة عن قرب، لتجد كم الإبر المغروزة في جسدها، أكياس الدماء التي استهلكتها منذ دلوفها، بشرتها الشاحبة، ضغط دمها المنعدم تقريبًا، تيقنت أن الأجهزة فقط من تبقيها على قيد الحياة، فقط عليهم نزع قناع الأكسجين وستودع

الحالة الحياة، وبهذا لن يتعرضوا للضغط، ستحتاج من عشر إلى أربعين عملية بمعدل عمليتين في شهر واحد ومن ثم عشرين إلى ستين عملية بمعدل عملية واحدة كل أسبوع لإزالة الجلطات الدموية التي حدثت بسبب حقن منع النزيف، وبالتالي هناك تدخل جراحي فوري لإيقاف النزيف الداخلي ومحاولة لترميم الأعضاء المتضررة بشدة.

تتنفس الصعداء، وتكتشف كم المسئولية الهائل الذي على كاهلها، والصعوبات التي ستواجهها كل عملية. وأن خطأ واحد يمكن أن يحدث، ستخسر حياة مريضة مهمة جدًا بالنسبة لها بسببه.

تخرج من الغرفة لتجد أحدهم يركض إليها، ويقف أمامها ويتحدث معها وكأنما وجد المرساة الصحيحة بعدما كان تائهًا:

-أزيك يا سيري؟

تخبره بود وتسأله عن حاله أيضًا:

-الحمد لله وأنت؟

يجلس على المقعد مشدوه وتائه:

-مش عارف.

تخبره بنبرة مختلطة ما بين لغتها الأم ولغتها الحالية الأجنبية:

-كيف هذا؟ قصدي أزاي دا؟

يسألها بأسي ونبرة صوت محزونة:

-شوفتي حالة نارين؟

تزم شفتيها وتعقص حاجبيها لتتحدث بنبرة جدية بلكنة إنجليزية:

-أجل، الحالة ليست جيدة، أنها كارثية عاصي.

يخبرها بوجه واجم ونبرة مغمومة:

-كلميني عربي يا سيري أحنا مش في إنجلترا.

تعتذر له وتخبره بلهجتها العادية التي تبدو ثقيلة على لسانها بعدما عاشت 4 سنوات في إنجلترا، وأصبحت لغتها الأم الإنجليزية لغة العمل والحياة:

-بعتذرلك، الحالة مش تمام.

يخبرها برجاء وضعف و وجه منهك:

- سيري حاولي من فضلك.

تنظر لحاله الرث وتخبره في عطف:

- أول مرة أشوفك كدا يا عاصي.

يخبرها بنبرة مجروحة وصوت يحتله الضعف:

-خايف أخسرها يا سيري، مش هعرف اتعامل مع الولد هي بس بتعرف تتعامل معاه. وكمان أنا وعدت عمتي.

تخبره بنبرة ساخرة و تشك في كلامه فهو يحاول اخفاء ضعفه:

-وعد عمتك ماشي وماله. بالنسبة للولد أتجوز عادي وخلي مراتك الجديدة تربيه عادي بسيطة أهي.

يحدجها بعينيه ويسألها جادًا:

- سيري أنتِ بعقلك دلوقت؟

تردف بذات النبرة الساخرة:

-لا بقولك الحالة الصحية لنارين عاملة أزاي، يعني لو منجحتش هتموت خلاص وأنتَ أبقي حاول وشوفلك حد بقا تكمل حياتك معاه والخ يعني.

يخبرها مكسورًا بنبرة محزونة:

- سيري، بلاش هزارك دا، ولا الكلام الساخر بتاعك من فضلك يعني، يا تقولي كلمة كويسة يا تسكتي.

تتركه مغادرة ذاهبة إلى منزلها وتطمن على صغيرها برفقة السيدة ألهام، بأي حال ستغادر بعد أن تنجز أول عملية ومن ثم ستعود مجددًا:

- حاضر يا عاصي هسكت يا وعد عمتك. عمتك أتوفت من سنة يا قلب عمتك. سيبها تروح للناس اللي بتحبهم.
يشير لها بالرحيل وأن تذهب بعيدًا عنه قبل أن يفقد أعصابه من حديثها المزعج:
-طيب يا سيري روحي.

لندن الساعة العاشرة بتوقيت غرينتش.
تأتي بكوبي من الشكولاتة الساخنة، لتجلس بجوار زوجها أمام شاشة التلفاز ليشاهدا فيلم "زوتوبيا" فيلمها المفضل، ترتدي بيجامة صوفية رمادية اللون عليها ملصق بشخصية الأرنبة جودي، وهو يرتدي بيجامة سوداء اللون عليها ملصق شخصية الثعلب نيكولاس، لتنزوي إلى جواره، فيزيل خصلات شعرها البنية ليظهر وجهها البريء وقسمات وجهها الملائكية، يمسد شعرها ويخبرها في حنان ممزوج بالخوف:
-فيروزة عاوز أقولك حاجة.
تحتضنه وتخبره في مشاغبة:
-حاجة إيه؟
يخبرها بنبرة حنونة ومرتبكة:
- أوعديني الأول لما هتعرفي مش هتكرهيني ولا هتفكري أني إنسان وحش من فضلك.
تضع يدها على جبينه لتجس حرارته، ربما هو مريض أو يهذي، غريب أمره، لتخبره في قلق:
- في إيه يا جاد مالك يا حبيبي؟ أنتَ عيان؟
يخبرها بتصميم:
- من فضلك أوعديني يا فيروزة.
تهز رأسها وتخبره بقلق:

- أوعدك.

يزدرد ريقه ومن ثم يخبرها قلقًا:

- فاكرة لما قولتلك أني مكنتش عارف بخطة هادي، أنا كنت عارف ناريمان قالتلي، كنت عارف كل حاجة بس كنت خايف أخسرك أنا حبيتك من أول مرة شوفتك فيها، لما كنت بتاكلي أنتِ وجيان، أنا كنت ببص عليكِ أنتِ. كنت خايف أخسرك والله يا فيروزة، أنا أسف بجد.

تمسك يده وتطمئنه بكل ودٍ:

-أهدأ طيب يا جاد، مش مستاهلة يعني كل الحاجات اهم كويسين مع بعض وهو بيحبها.

يخبرها مكمود :

- مبيحبهاش يا فيروزة، هادي مبيحبش حد ولا حتى نارين.

تنزع يديها منه وتسأله في شك:

- ومال نارين ومال جيان بيك، في إيه يا جاد؟

يحاول أن يستجمع شتات عقله ويخبره في قلق، كلمة واحدة فقط ستدمر حياته إلى الأبد:

- نارين كانت رهان ما بينا، هو قال إنه هيخليها تحبه، بس كلنا كنا عارفين إنها بتحب عمار وهتتجوزه ومستحيل هتفكر في حد غيره.

تتجمع قطرات الدمع في عيونها وتصر على أسنانها:

-ها كمل وبعدين؟

يفرك كف بكف :

- الطريقة الوحيدة كانت أن نارين تبعد عن عمار، بس أحلفلك بإيه يا فيروزة مكنتش أعرف أن الحكاية هيكون فيها كدا، مكنتش فاكر أنه هينجننها بالطريقة دي والله ما كنت أعرف.

تقف وتبتعد عنه وتخبره منفعلة:

-جاد، طلقني.
يذهب إليها ويحاول احتضانها لتبعده عنها:
- مكنتش عارف والله ما كنت أعرف.
تدفعه بعيدًا وتصرخ في وجهه :
- دمرتوا حياة إنسانة وتقول مكنتش أعرف لمجرد رهان سخيف، حرام عليكم. أنا كنت فاكرة نارين هي اللي وحشة لما طلعتوا انتوا شياطين.
يحاول أن يضمها إليه ليجعلها تهدأ :
- من فضلك يا فيروزة أهدي.
تضربه على صدره منهارة لتجعله يبتعد ولكنه يتشبث بها:
-حرام عليكم، ليه كدا؟ طب أكرهك إزاي أنا دلوقت بعد ما حبيبتك؟
يكفكف دموعها ويحتويها ليجعلها تهدأ:
- ملناش دعوة بكل اللي فات يا فيروزة، أنا وأنت هنبدأ من جديد.
تبعده عنها وتتحدث باكية:
- لو كنت اعترفت زمان صدقني كنت هتوفر كتير.
يمسك وجهها بيده في حنان:
-فيروزة أنا بحبك أرجوك هنبدأ من جديد.
تخبره بحسرة ونبرة محشرجة:
-يا ريتك ما قولتلي.
يضمها إليها ويربت على ظهرها لكي لا تهرب منه:
-أنا معملتش حاجة يا فيروزة، الموضوع كله رهان سخيف.
أنا والله كنت بهزر ومكنتش أعرف أنه هياخد الموضوع جد.
تشهق في ضلوعه وتعاتبه وهي تكفكف دموعها منفعلة:
- يعني لو حد راهن عليا هيكون إيه رد فعلك، ها قولي.

يمسد شعرها ويجعلها تهدأ وهو يعتذر:
- أسف والله أسف. كنت خايف تضيعي مني لأنه كان عاوزك أنتِ.
تشعر بالدوار وتخر مغشيًا عليها من انفعالها الزاد، ليحملها بين ذراعيها ويضعها في غرفتهما، يحضر زجاجة العطر، يضع قليلًا بجوار أنفها لتستيقظ فزعة، ليمسك بيدها ويطمئنها بحنان بالغ أنه لا بأس، ويخبرها أنه أراد الحفاظ عليها لذلك أضطر لهذا الرهان، لم يكن يريد أن يخسرها وحسب.

في المشفى- القاهرة الساعة الواحد صباحًا..
الجميع نائم ويغفو قرير العين، يفتح باب أحدهم ويصدر صريرًا مزعجًا، ليدلف شخص بخطوات ثابتة. يتقدم ببطء إلى سرير أحدهم. لينتفض الشخص النائم ليقترب إليه شخص بذراع مجبر ويضع سكين على فمها، ويمررها على وجهها:
-أش، مسمعش صوتك، أنا جاي أقولك، أوعى تفكري تشهدي ضدي.
ترتعش فرائصها لتردف بصوت خائف:
- هادي من فضلك، حرام عليك، الست بتموت.
يتحدث بتحذير:
- جيان أنا بحذرك، خليكِ زوجة مطيعة وأسمعي كلامي، إياك والشهادة ضدي ودا لمصلحتك.
تهز رأسها في إيجاب وشفاه مرتعشة:
- حاضر.
يصك على وجهها بيده السليمة ومن ثم يتحدث بصوت هادئ:
-هي دي مراتي اللي بتسمع الكلام.

يخرج من غرفتها ليتركها خائفة، عيناها تأبه أن تهتف بالغمض، فتجلس منزوية على ذاتها تكاد تبتلع ذاتها من الفزع.
الحق سيدفن في القار والباطل سيطير عنان السماء كالطير المهاجر.
وبمناسبة الطير المهاجر سأكتب لكم أغنية من تأليفي، لا وجود لها في أي مكان.
" يا طير يا مهاجر سلاملي على الحبايب
يا طير يا مهاجر قول للحبيب القلب دايب
يا طير يا مهاجر قولي فين الحق وفين الباطل
الحق اللي اندفن في تراب أرضي
والباطل شعشع في سماءها
يا طير يا مهاجر أبعت سلامي لحبيب غايب"

الفصل العاشر (شهادة تغير المصير)

بعد عشرين يومًا. رفعت القضية للمحكمة بعد ملبسات وتحقيقات عدة والتأكد من حالة المجني عليها، وإصرار زوجها على الخضوع لمحكمة عادلة وذلك بعد أن أقنعه آدم أنه يجب أن يحكم القانون في هذه المسألة لا القوة والبربرة.
مرت العشرون يوم ثقيلة ومثقلة، زوج يرى زوجته تموت، طبيبة تحاول أن تنقذها بيد أنها نجحت فقط في جعل معدلاتها الحيوية مستقرة لتستكمل باق العمليات، وأيضًا بمساعدة

الأطباء استطاعوا أن يوقفوا النزيف الداخلي، ولكن ترميم الكسور سيأخذ وقتًا وأيضًا لم تفق الحالة من الغيبوبة ويبدو أنها ستحتاج وقتًا أو لن تفيق بالمرة وستبقي جسد يعمل بالأجهزة، فقط الروح تحتاج الإذن لتغادر من هذه الدنيا الموحشة.

أم غادرت البلاد لكي لا تشهد ضد وليدها، ذلك الذي لم تحسن تربيته ولكن ماذا تفعل؟ هي أم بالنهاية.

... في تمام الساعة العاشرة صباحًا.

بداخل قاعة المحكمة الموقرة. حيث المقاعد المرصوصة من خشب متين ومطلي بمادة حافظة، العثة في أغلب القاعة وبعض الأتربة، منصة الشهود تنصف القاعة، الحاجب على أقصى اليمين من منصة القضاء. يجلس في كدر مرتدي بذلته السوداء التي يمقتها، ولكن حاليًا قلبه يتوشح بالسواد. في قفص الالتهام ذلك الوغد المتسبب في حالة زوجته، لا يهتم بأي مما يحدث فهو يعرف نهاية تلك القضية قبل أن تبدأ.

المقاعد التي كانت خالية منذ برهة أضحت ممتلئة، صوت سكون لبرهة يقطعه صوت محاميته التي تدافع عن هذه القضية لآخر رمق، لتتحدث بنبرة وقورة ثابتة:

-سيدي القاضي حالة زوجة موكلي الصحية في خطر والسبب في ذلك كله هو ذلك الماثل أمامك السيد هادي. وأطلب من السيدة جيان أن تأتي لمنصة الشهود.

تترك مقعدها وتذهب لمنصة الشهود لتستجوبها المحامية وتخبرها أن تقص كل ما حدث:

- سيدة جيان إيه حصل من فضلك احكيلنا؟

تفرك كف بكف في توتر ومن ثم تتحدث بنبرة خائفة:

- في البداية قولت لهادي أني حامل وهو أنكر ابنه، حاولت اكلم ماما وبابا ومحدش رد، قررت أكلم نارين عشان تساعدني، وهي جات فعلًا وحاولت تتكلم مع هادي وعبد الجبار بيه بس هادي ضربها وسقط ابنها و رامها من الدور التاني وفي وسط كل دا ضربني وسقط ابني كمان.

تشير المحامية إلى الشاهدة وتردف في عزة وانتصار:

-ها هي الشاهدة يا سيدي قد اثبت صحة ما جرى.

ليقف محامي الخصم ليأخذ الإذن لاستجواب الشاهدة:

-سيدي القاضي فلتسمح لي باستجواب الشاهدة، أظن أن المحامية متسرعة قليلًا.

يشير القاضي إليه أن يفعل، له حرية الأمر والتصرف، يسير بخطوات ثابتة ناحية المنصة ليردف في نبرة خبيثة:

-مدام جيان، قوليلي إيه علاقة السيد هادي بالسيدة بنارين؟

تتوتر وتتصبب عرقًا لتتحدث في تلعثم:

- كانوا....

يبتسم المحامي ابتسامة ماكرة ومن ثم يسأل:

-كانوا إيه يا مدام جيان؟

تزدرد ريقها وتخبره على مضض:

-كانوا بيحبوا بعض أو كنت فاكرة كدا.

يقترب منها ويمارس الضغط النفسي عليها:

- بيحبوا بعض ولا كانوا في علاقة حميمة مع بعض؟

تجيب مضغوطة، فهي لا تريد أن تلوث سمعة زوجة رجل آخر على مسمعه:

-معرفش.

يحضر المحامي ملفات الإجهاض ويسلمها للقاضي:

- سيدي القاضي دي أوراق إجهاض مدام نارين لطفلين من موكلي ودا معناه أنها كانت على علاقة معاه، يعني العلاقة ما بينهم كانت بالتراضي. وكمان الكل عارف أنها كانت عشيقته فطبيعي أنه يحصل حنين للماضي.

تنفعل جيان وتصرخ في وجهه وتخبره أن ذلك كذب:

-لا دا كذب.

يبتعد عنها قليلًا ويخبرها في تهكم:

-فين الكذب يا مدام؟ حضرتك قولتلي بنفسك أنك متعرفيش.

تتدخل محامية الدفاع وتحاول أن تخلصها من براثن ذلك المحامي الذي يعرف كيف يكسب القضية من أول وهلة، تتحدث ملهوفة:

-سيدي القاضي أعترض السيد ضبع بيمارس الضغط على الشاهدة.

ليتحدث القاضي متضايق:

-أستاذ ضبع أدخل في الموضوع على طول.

يلوح بيده ويخبره بكل عملية وجدية وفراسة:

-هدخل على الموضوع على طول، في الواقع أن مدام نارين و هادي كان ليهم علاقة ببعض وعلاقة فراش كمان، واللي حصل والمتوقع أن مدام نارين راحت لاسترجاع الذكريات دي أكيد والأكيد أن مدام

جيان لما شافتهم حصلها صدمة وأنا هنا هستدعي موكلي عشان يقص اللي حصل بنفسه.

يأتي من منصة الالتهام ليدلف إلى منصة الشهود، بذراعه المجبر وكنزته الصوفية القرمزية، ليسأله المحامي بنبرة ودودة:

-أستاذ هادي، أحكيلنا اللي حصل؟

يتحدث بنبرة بريئة وخائفة كذلك وهو لا يعرف كيف يخبرهم بما حدث:

- في الواقع يا متر اللي حصل زي ما أنته قولت بالضبط، أنا كنت مصدوم أنها جات يعني المفروض أنها ست متجوزة ...

تصرخ زوجته في نبرة مكمودة ومحزونة وتخبر الجميع أنه كاذب كبير:

-حرام عليك يا هادي، كفاية كذب. يا ناس دا افتراء حتى أنها مش موجودة عشان تدافع عن نفسها.

يضرب القاضي بالمطرقة ليردف بصوت جهوري أن يصمت الجميع في المحكمة:

- هدوء في المحكمة. كمل يا أستاذ هادي.

يستكمل حديثه بنبرة تنم عن الندم والحزن، يجيد التمثيل جيدًا بالمناسبة، يذرف بعض الدموع في حديثه ليضفي واقعية وتأثر:

-حصلت ما بينا علاقة، غصب عني لأني حاولت امنعها، جيان للأسف شافتنا ومستحملتش فنزلت تجري واتكعبلت في السلم ومعرفتش ألحقها ومكنتش فاكر أنها هتجهض. ونارين معرفش إيه حصلها باين حست بالذنب وعشان كدا طلعت فوق الفيلا ورمت نفسها ومقدرتش الحقها، في الحقيقة الغلط غلطي أنا.

يعطيه المحامي منديل ليكفكف دموعه ويخبره بنبرة مشفقة أن يهدأ ويتماسك لأجل القضية:

- أستاذ هادي، أهدأ أرجوك.

ليردف بذات التأثر والدموع التي تنساب على خديه:

- مكنتش أعرف أن جيان حامل، كان لازم أخد بالي.

لتتقزز زوجته وتنهار باكية وتصرخ في سخط:

- حرام عليك يا هادي، ربنا ينتقم منك.

ينظر المحامي إلى حالتها النفسية ويبتسم ابتسامة النصر ويخبر القاضي بالحقيقة الواضحة أمامه، في نبرة استعلاء:

- واضح أن مدام جيان حالتها النفسية مش مستقرة لذلك أطالب المحكمة الموقرة بأن لا يأخذ بشهادتها بعد اليوم.

ليردف والد المتهم طالبًا من ابنه أن يطلقها أمام القاضي والموجودين أجمعين:

- أنا أطلب أن ابني يطلقها، هادي طلقها.

ينظر إليها ويحاول أن يخفي انفعاله ليردف بنبرة باردة:

-أنتِ طالق يا جيان طالق بالتلاتة.

يتحدث المحامي في ثقة بعد أن أثبت أن زوجة موكله حالتها النفسية متدهورة ولن يأخذ بشهادة الشاهدة الرئيسية:

- أظن أن زي ما موكلي قال أن مدام نارين حست بالندم ولذلك أرجو تبرئة موكلي مما ينسب إليه، فقد كانت علاقة بالتراضي.

تقف المحامية لتخبره بثقة، وتتقدم بالتقارير الطبية لحالة المجني عليها الصحية:

- واضح أن محامي الخصم مستعجل جدًا وبيبني فرضيات من دماغه. حالة موكلتي بتدل أنها اتعرضت للتعذيب الوحشي وليس أحساس بالذنب والكلام العبيط اللي بيقوله الخصم.

ومن ثم تطلب أن تستجوب الخصم:

-أنا أطالب باستجواب الخصم.

تذهب باتجاه منصة الشهود وهي تنظر له بقرف لتخبره بتحدي:

- سيد هادي، حضرتك بتقول أن اللي حصل بالتراضي وأظن في كاميرات هتثبت كلامك أو هتثبت عكسه.

بدأ التوتر جليًا على وجهه ليصفر ويتمتم:

- الكاميرات.

ليعترض المحامي على ما تفعله محامية الدفاع:

- أعترض المحامية بتمارس الضغط على موكلي.

ليخبره القاضي بنبرة جامدة أن الاعتراض مرفوض:

-اعتراضك مرفوض، خليها تشوف شغلها.

تنظر للقاضي في امتنان ومن ثم تستكمل حديثها، وتوجه الأسئلة للخصم:

-شكرًا سيادة القاضي، ها يا استاذ هادي، الكاميرات المفروض أنها مسجلة كل حاجة، مالك اتوترت ليه وبتعرق بشكل هستيري؟

يتوتر ويقطر جبينه عرقًا بالرغم من البرودة الشديدة ليتحدث في قلق:

- لا مفيش، بس الكاميرات كانت عطلانة.

تسأله بنبرة ساخرة وتحاول الضغط عليه:

- إزاي تعطل في الوقت دا بالذات، ياه أفرض حرامي هجم عليكم دلوقت؟!

ليجيبها بدون أن يعي كلماته أو يرتب لها:

-ما هي اتصلحت بعدين.

تخبره بنبرة منفعلة يشوبها الانفعال:

-استاذ هادي أنا مسالتكش أتصالحت أو لا.

يقف المحامي معترضًا على حديث زميلته، ولينقذ موكله من تلك الأفعى:

-أعترض المحامية بتضغط على موكلي.

يخبره القاضي أن يكف عن الاعتراض فلا يوجد ما يعترض عليه:

-أستاذ ضبع، أنتَ كل شوية تقول أعترض.

تسأله المحامية بنبرة مستفزة:

- ها يا أستاذ هادي، قولنا كان غصب عنك أزاي يعني، اغتصبتك مثلًا؟

يشدوه من حديثها ويخبرها باستغراب من كم وقاحتها:

- إيه اللي تقوليه دا؟

تخبره ساخرة ومتعجبة من استغرابه للأمر:

-ما هو حضرتك بتقول غصب عنك هفهمها إزاي يعني؟

يشير لها أن تقترب فيهمس لها بلكنة إنجليزية:

- أنتِ عاهرة.

تنفعل المحامية وتحاول استعادة رباطة جأشها قبل أن تلطمه على وجهه وتهين كرامته:

-سيدي القاضي أتعرض للإهانة ها هنا وفي حضرة محاكمتك، لقد قام بإهانتي للتو. أعتقد أن الأستاذ هادي، سريع الغضب فيما يبدو، وأظن إنه من قام بضرب المجني عليها ومن ثم اغتصابها ولم تكن بالتراضي أبدًا. وأطالب بتوقيع أقسى العقوبة على المتهم.

يتدخل المحامي ويتحدث بنبرة ماكرة، وهو يعلم أنهم دمروا جميع الأدلة:

- وأين الأدلة سيدي القاضي، الشاهدة وحالتها النفسية سيئة، المجني عليها غير موجودة بينا، ولهذا أطالب باستجواب السيد عاصي.

ليدلف إلى منصة الشهود كدر، الدنيا تضيق الحنق عليه، ليسأله المحامي بنبرة خبيثة:

-سيد عاصي حالة مراتك النفسية كويسة؟

يقطب حاجبيه ويجيبه مستغربًا:

-ودا إيه علاقته بالقضية؟

يتركه المحامي، ويأخذ من حقيبته تقارير طبية نفسية لحالة السيدة نارين ويوضح قائلًا بهدوء:

-سيدي القاضي أمامك حالة السيدة نارين النفسية والتي كانت في مستشفى للأمراض العقلية والتقرير يشير إلى أن السيدة نارين مجنونة ولا تعقل أفعالها.

ليتحدث عاصي بنبرة محزونة ويكذب كل تلك التقارير:

- بس هي اتعالجت.

يخبره المحامي بنبرة حادة:

-سيد عاصي آخر تقرير يثبت أن السيدة نارين مضطربة نفسيًا ولم تتلقى العلاج اللازم، وعشان كدا وأكيد أن تصرفاتها غير معلومة وممكن تأذي نفسها وتلؤم غيرها عادي. وممكن تغلط وتداري على عملتها بجنونها وممكن تنسي اللي عملته كمان. وعشان كدا أطالب ببراءة موكلي.

يسمح له المحامي بالنزول عن منصة الشهود:

- تقدر تتفضل يا سيد عاصي.

يذهب ليجلس وهو يحاول أحكام أعصابه ومن ثم تلومه المحامية الخاصة به على عدم أخبارها بكل شيء:

- إزاي متقوليش أنها كانت مجنونة يا عاصي.

يخبرها في أسي:

-لأنها اتعالجت يا ديجا.

لتهمس له منفعلة وساخطة:

-وفين التقارير يا عاصي، ها فين؟

يشعر بالقهر والسخط والغضب ليخبرها بعجز:

-مكنتش عامل حسابي.

تحدثه منفعلة:

- طيب ربنا يقدرني ويصبرني.

يقف في منتصف الساحة ويتحدث بثقة وصوت جهوري:

-ها هنا سيدي القاضي قمت بإثبات أن المجني عليها لا يمكن التنبؤ بتصرفاتها ولذلك أعتقد أن علاقتهم بالتراضي. ويبدو أن السيدة نارين زوجة خائنة وفاسقة كذلك.

لينهض عاصي من مكانه ويقوم بلكم المحامي على وجهه وإمساكه من تلابيبه في عنف ، لقد طفح كيله واستعرت نيران الغضب بداخله ولم يعد يتحمل، لتتدخل قوات الأمن بداخل القاعة لفض النزاع ويأخذه آدم بعيدًا ويحذره من حماقته وأن كل الذي فعله سينصب عليه.

يهندم المحامي ثيابه ويمسح الدماء من فمه ليردف مستفزًا:

-أطلب بتعويض مادي لموكلي لتعرضه للضرر النفسي والجسدي واتهامه بتهمة بشعة مثل تلك. ماذا نفعل أن كانت زوجته شبقة؟ أرءيتم هذا التصرف البربري أظن أن السيد عاصي هو المسئول عن حالة زوجته، فربما رآها في ذلك الوضع المخل ولم تتحمل رجولته لذلك قام بتعذيبها ورميها من أعلى منزل موكلي، وأظن أنه شك أن الطفل ليس طفله وينبغي أن يعرف أي أب لابنه الأول، ربما لا يكون ابنه، أليس كذلك يا سيد عاصي، فزوجتك لا يتنبأ بتصرفاتها من يدري ربما خنتك مع أكثر من شخص؟ ما ذنبنا نحن وذنب موكلي البريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

يمسك آدم وأفراد الأمن بعاصي قبل أن يتلهم ذلك المحامي القذر. يضع آدم الأصفاد في يديه ويحاول تهدئته إلى أن يصدر القاضي حكمه فتخور قواه ويجثو أرضًا، لقد أهانوا كرمته وتلطخت بالسخام.

يصدر صوت القاضي رنان ومزعجًا معلنًا الحكم في هذه القضية :

-حكمت المحكمة بغرامة مالية على المتهم هادي عبد الجبار و غرامة مالية على السيد عاصي لازدراء المحكمة والتعدي بالضرب على

محامي الخصم، وتغلق القضية لعدم كفاية الأدلة وقد تم الحكم أن علاقة السيدة نارين والسيد هادي بالتراضي. ويمنع على السيد عاصي الاقتراب من السيد هادي وعدم التعرض له بموجب القانون.

يحاول التحرر من الأصفاد ولكن آدم لوي يديه ليصبحا خلف ظهره، ليكتم صرخته ويتحدث مقهورًا:

- بس دا ظلم مراتي مش خاينة. الحكم دا ظالم. فكني يا آدم، سيبني أقتله بقولك.

يصرخ في وجه آدم غاضبًا:

-سبني أقتله، وإلا هقتلك أنتَ، فين قانونك العقيم يا باشا؟ هقتلك يا آدم وهقتله.

يحتضنه آدم ويحاول أن يجعله يهدأ، يحاول أن يستعيد رباطة جأشه:

- فكني ومش هعمل حاجة. خلاص هديت، أنا مش مجرم عشان تكتفني كدا.

يحل وثاقه بعد أن غادر الجميع، فيغادر مسرعًا، ليذهب إلى أمانه الوحيد، البحر الذي ينقي الخطايا ويزيل الأوجاع ويرمم الفؤاد. تختلط دموعه وقهره بملوحة المياه لتكشف كم الضعف الذي يعتريه.

يخرج ليجد الجرائد والأخبار وكل وسائل التواصل تتحدث عن الأمر. وعنوان الجرائد والأخبار بشكل مثير وتنتشر كالنار في الهشيم." شاهد رجل أعمال يرمي زوجته من إحدى المنازل"

" زوجة رجل الأعمال الشهير قامت بخيانته"

" هل الطفل الأول طفله؟"

" رجل أعمال يشكك في نسب طفله"

" اقرأ الحادثة رجل الأعمال الشهير ينتقم لرجولته"

" زوجة رجل الأعمال مختلة عقليًا"
" رجل الأعمال ينفعل على المحامي ويضربه لأن زوجته خائنة"
" كم عدد الرجال الذين خانته معهم؟"
" شاهد حصريًا انهيار رجل الأعمال بعد أن علم بخيانة زوجته"
والكثير بالطبع من العناوين الرنانة والمثيرة للجدل والتي يستلذ بها أصحاب الفضائح و الجرائد الصفراء.
الكثير من المكالمات الهاتفية منهم الشامت، ومنهم المشفق، ومنهم المشجع الذي يقول أنه حقًا رجل كان ينبغي عليه قتلها فورًا، والبعض الآخر الذي يعلم الحقيقة يحاول أن يواسيه ويدعمه. وبالرغم من ذلك لقد انتهى، لقد أضحت سيرة زوجته على كل لسان، كالعلكة تلوكها كل الأفواه.
والبعض يخبره أن يجري فحص لطفله الأول ربما لا يكون طفله من الأساس، الكثير من الأقاويل وهو فقط يستمع ومن داخله يغلي ويريد أن يمزق ويقطع ألسنة الجميع ولكن يجب عليه أن يتحمل نتيجة أخطاءه. يغلق هاتفه ليدلف إلى البحر مجددًا لعله يرمم ما كسر بداخله، لن يموت بالطبع ولكنه يتمنى أن تنشق الأرض وتبلعه.

الفصل الحادي عشر: لماذا يا أبي؟

الساعة الرابعة عصرًا في ذلك اليوم الكئيب.

منزل راقي في أحد الأحياء السكانية الراقية، الشجيرات تحاوط أسواره العادية، العشب الندي المتصبغ بلونه الأخضر، رائحة العشب تبعث في النفس السكون، قطرات المياه من مرش الماء تعطي الحياة لأزهار الرياحين المندسة في أقصى أسوار المنزل.

صوت خطوات حذاء نسائي بكعب عالي، ترمي حقيبتها وتنزع

رداء المحاماة الخاص بها، تعدل من تسريحة شعرها لتجعله ينساب على وجهها ومن ثم تبحث عن والدها. تذهب إلى مكتبه المكان المفضل له وتعاتبه في قهر وخذلان:

- بابا أنت ليه حكمت الحكم الظالم دا؟

يضع كوب القهوة من يده ومن ثم يردف بجدية:

- خديجة يا بنتي، الحكم مبيكونش بالعواطف بيكون بالأدلة والحجة الأقوى.

تنظر له بعيون مخذولة وكدرة، تخبره في اندفاع:

-بس أنت عارف أن نارين مظلومة وأن جيان بتقول الحق والباقي كلهم كذابين.

يرتشف قليلًا من قهوته ومن ثم يعدل عويناته ليتحدث في معاتبة و يوبخها على تسرعها:

-عارف بس، لحظة واحدة وأنتِ عملتلي إيه اتوترتِ لما عرفتي أنها كانت مجنونة حتى مطلبتيش استئناف أو حتى تأجيل الجلسة لعدم كفاية الأدلة مخك كان فين؟

تنكس رأسها في الأرض وتخبره بأسف وندم :

- آسفة يا بابا كان مفروض أركز، ممكن أعمل طعن في الحكم طيب؟

يمسد شعره الأبيض ليردف ناصحًا:

-قدمي طلب وأنا هقبله. وبالمناسبة ركزي أكتر المرات الجاية دي مصاير بني آدمين يا بنتي.

يختبئ انفعالها وسخطها لتجيب في تذلل:

-حاضر يا بابا.

يقف ذاهبًا إليها ليمسك يدها ويمسدها في حنان بالغ:

-وبلاش اندفاع خلى الخصم يبدأ الأول وبعدين أنتِ اختاري ثغراته وأدخلي منها، بلاش اندفاع وثقة زيادة.

تخبره بانصياع وخضوع، وتهم خارجًا:
-حاضر يا بابا هعمل كدا، وشكرًا على المساعدة.
قبل أن تغادر يخبرها في تحذير:
-مش هساعدك كتير يا ديجا، لأني مش هكون القاضي دايمًا، اعتمدي على نفسك.

في مكان آخر وتحديدًا في مشفى.
فتاة تجلس في العناية المركزة بجانب سيدة ممددة لا حول لها ولا قوة، جمالها تغطيه الكدمات والندوب، وجه شاحب يعتريه الهزال، عيون مغمضة في سبات مديد، تلتقط يدها وتخبرها في أسي واعتذار بفيض من الدمع:
-نارين أنا آسفة كل دا بسببي أنا، يا ريتك ما جيت ولا حاولتي تنقذيني، لا ابني عاش ولا حتى أنتِ طلعت سليمة، أنا أسفة بجد، مكنش المفروض تيجي، أنا السبب.
يدلف إلى الغرفة بملامح مكدرة، يرتدي سترة رمادية وبنطال أسود، ليقترب من الجالسة على الكرسي أمام المريضة ليخبرها بنبرة جادة:
- جيان ممكن تطلعي برا، حابب اتكلم معها شوية.
تعتذر له ودموعها لا تتوقف عن الانسياب:
- عاصي أنا أسفة، والله أسفة.
يردف بذات النبرة الحادة:
- أطلعي برا يا جيان من فضلك.
تحاول أن تطلب السماح منه:
-سامحني يا طيب.
ليخبرها بنبرة جامدة ويشير إليها بالمغادرة فورًا:

- مالكيش ذنب في حاجة عشان أسامحك، أنتِ زيك زيها. محتاج أتكلم معاها من فضلك أمشي.
تتركه وقبل أن تغادر تخبره أن ينتبه لها:
- خلى بالك منها.
يحاول أن يكون ودودًا وألا ينبس بكلمة جارحة، ولكن تخونه مفرداته:
- ادعيلها، هي محتاجة كل دعوة حاليًا. مع السلامة ويا ريت متجيش تزوريها تاني، مش حابب وجودك من فضلك يعني.
تتكدر ملامحها، تدلف خارجًا منكسرة الفؤاد:
- هعمل كدا.
تتركه لينهار بجانبها يعتذر لها، يخبرها أنه يسامحها، وألا تتركه وتغادر، يعلم أنها تستمع وبالرغم من ذلك لا تريد هذه الحياة بعد الآن.
يمسك يدها الدامية في حنوٍ ليخبرها معتذرًا:
-أنا أسف يا نارين، أنا أسف، كنت فاكر هجبلك حقك.
ومن ثم يردف مغضبًا:
- بس وحياة ابننا يا نارين لهجبلك حقك والله. مش هسيب حقك أبدًا.
لا يجد أي استجابة، صوت الجهاز لم يتغير، يسير بوتيرة واحدة بدون تقدم حتى، يخبرها أنه سامحها للمرة الألف تقريبًا:
-مسامحك والله مسامحك أرجوك متعمليش فيا كدا.

يدلف خارج الغرفة لأن وقت الزيارة انتهى وأن وجوده لا فائدة منه، يجلس على المقعد أمام غرفتها، يبحث عن هاتفه ليهاتف حمزة ليرى الأولاد في الملجأ لأن وقت زياتهم أنقضى، ويخبره بنبرة جامدة:

-حمزة شوف الولاد في الملجأ، أتأخرنا على زيارتهم.
ليخبره حمزة بانصياع:
- حاضر.
ليردف أمر آخر، أن يأخذ لهم هدايا معه:
- خدلهم هدايا معاك.
يغلق معه ويقف أمام غرفتها غير قادر على الدلوف إليها، يضع يده على الباب ليردف في أسي:
- نارين أنتِ سامعني صح، أنا عارف أنك سامعني وبتستهبلي، قومي نتخانق طيب.
وما هي ألا بضع دقائق حتى باغته حمزة بمهاتفته ويخبره في استنجاد:
- عاصي الحقني.
يفزع ويسأله في قلق:
-إيه حصل؟ الولاد بخير.
حمزة وبجانبه أصوات تتعالي وصراخ وعويل لا يهدأ:
- الولاد بيبكوا وعاوزينك أنت و نارين ، وأنا الحقيقة مش عارف أتعامل مع جيش التتار دا. إيه العيال الزنانة دي؟
يعقص جبينه ويخبره بنبرة جادة:
-طيب يا حمزة، لا يعتمد عليك في أي حاجة.
يغلق معه، يضع هاتفه في جيبه وينظر لها خارجًا ويتحدث عاجزًا ومعاتبًا لها، بالرغم أنها لن تستمع له بأي حال:
- شوفتي الولاد عاوزينك يا ست هانم، أقولهم أنا إيه دلوقت، من فضلك كفاية عناد يا نارين، أنا زهقت من عنادك دا. عاوزة تعرفي إيه؟ مش هقدر أستحمل كتير هيجي وقت وأزهق صدقيني.

صوت أقدام يأتي من خلفه ليربت على كتفه ويخبره أن يهدأ وأن يتعقل قليلًا:

- أهدى يا عاصي.

يضرب الحائط أمامه في غيظ وقهر:

-أهدأ أزاي يا سيري، شوهوه سمعتها، كنت عاوز أجبلها حقها بالقانون زي ما الباشا فهمني، عشان لو رجعت عاصي بتاع زمان مش هخلي حد. وأنا مش بهزر في الحتة دي.

تسأله في فضول، لماذا يفعل هذا الشيء وهو يعلم من البداية عن علاقتها به، بل الجميع يعلم أنها كانت عشيقة هذا الشخص بعد وفاة أخيه وجنونها:

-ليه بتعمل كدا، وأنت كنت عارف علاقتها بيه؟

يخبرها بكل بساطة، غافرًا لها كل شيء:

- لأنها اتغيرت يا سيري.

تسأله مجددًا لماذا، أعني كيف له أن يسامح هكذا بكل بساطة، المسامحة تحتاج قلبًا كبيرًا:

-طب ليه يعني، قلبك كبير للدرجادي؟

يخبرها بمشاعر متخبطة وحديث مشتت، يمكنك فقط تجميع بعض الكلمات والحقائق منه:

-مش كدا بس أحنا الاتنين شبه بعض، قبلتني بعيوبي بدون تعديل وأنا قبلتها زي ما هي، محاولتش تعدلني ولا أنا حاولت، مع الوقت عالجتها من جنانها أو حاولت، كانت هي طوق أماني ونجاتي، تخطينا حاجات كتير مع بعض. فاهمني.

تسأله في شك:

- بتحبها يا عاصي؟

يتحاشى النظر إليها ويراوغ لعدم الاعتراف:

- عشان وعدي لعمتي.
تخبره أن يتوقف عن المماطلة، لتتحدث بلكنة إنجليزية:
-توقف، لا تريد الاعتراف لماذا؟ حسنًا لماذا لم يكن آدم مثلك. كنت أتمنى لو كان شجاعًا فقط.
يخبرها بنفي، وأنه سيئ وآدم أفضل بكثير:
-لا آدم أفضل يا سيري، أنا وحش يا سيري، أنا مش كويس، أنا كنت أسوأ من كدا، كنت ممكن أقتل بدم بارد وميهمنيش، معرفش يعني إيه صلاة، معرفش إي حاجة، مفيش غير من سنتين بس من لما بقيت في حياتي مغيرتنيش بس أتغيرت أنا عشانها. ربنا كرمنا بطفل خلى حياتنا أحسن. الطفل اللي بينا هو اللي غيرنا، خلانا ناس أحسن عشانه.
تنفلت رباطة جأشها لتنساب دموعها باكية وتردف في تمنى بذات اللكنة:
-كنت أتمني وحش مثلك ليدفع عني، مثلما تفعل أنت الآن.
يخبرها أن تهدأ وها هو ذا الذي يحتاج من يخفف كاهله، ومن ثم يصبح هو من يرمم كسور غيره وهو في أشد الحاجة لمن يربت على فؤاده الدامي متحدثًا بلغة إنجليزية:
-سيري، أهدئي يا مجنونة، أنتِ لديك حياة و طبيبة مشهورة ماذا بعد؟
يزداد بكائها وتتقشر كبصلة وتصبح برقة العصفور أمامه، لتخبره أنها تعرضت للظلم ولم يكن عادلًا ما جرى لها، لتتحدث بذات النبرة الإنجليزية:
-لأني تعرضت للظلم، لما يدعني حتى أدافع عن نفسي ماذا فعل؟ لقد قام بتزوجي لمن أعتدي علي؟ لم يكن ذنبي، عاصي.
يحاول أن يخفف عنها وطأة ما تشعر، ليخبرها راجيًا:

-أنا عارف أنه مش ذنبك. للأسف مش هقدر أحضنك زي زمان، بس أهدي عشان خاطري، سيري. من فضلك.
تكفكف دموعها وتستعيد رباطة جأشها لتخبره بقوة بلكنتها الإنجليزية:
- لا بأس، الأوغاد في كل مكان. ولكني لم أقابل وغد مثل آدم.
يواسيها ويخبرها بلكنة إنجليزية، لتصبح هي لغتهم التي سيجرون بها المحادثة:
- سيري، أنتِ فتاة قوية.
تنظر له بإشفاق:
-وأنت رجل صالح وطيب، عاصي. ربما في حياة أخرى ستكون منقذي.
يحك رأسه ويخبرها بثقة:
- لا أنا سيئ جدًا.
تخبره بنبرة متحسرة:
- ليت كل السيئين مثلك، أظن كان ليكون العالم أفضل.
يخبرها بنبرة هادئة محزونة:
-أنا لست منقذًا ولا بطلًا سيري أنا فقط أنفذ.....
لتقاطعه قبل أن يكمل وتستكمل هي حديثه:
-أنا فقط أنفذ وعد عمتي، يا قلب عمتك، أنت غارق في الحب يا أبله.
يعقص جبينه ويهز كتفيه في اعتراض :
- حسنًا. ليس كذلك فعليًا.
تردف بنبرة ساخرة تحتلها الجدية:
-لا يفعل كل ما تفعل، إلا عاشق إيها الأحمق.
تنطلق من ثغره ابتسامة هاربة دون إرادة منه:
- سيري لم تتغيري.

تهز كتفيها وتزم شفتيها لتسأله مستغربة:
-ولماذا أتغير؟

يخبرها بود وصوت هادئ:

-حسنًا أبق كما أنتِ، يا فتاتي القوية.

تضربه على كتفه وتسأله متعجبة:
- أنت تجعل الفتيات تقع في غرامك. صحيح؟
يمسد شعره، ويهندم سترته ويخبرها بغرور:
-ماذا أفعل؟ أنا وسيم جدًا.
تضربه على جبينه بإصبعها، لتخبره بسخرية، قبل أن تغادر:
-بالطبع وجه الضفدع يظن نفسه وسيمًا. وداعًا يا عاصي، سأرى حالة زوجتك والمستجدات الخاصة بها. أعتن بنفسك يا أبله.

الفصل الثاني عشر: تزول الهموم

يجلس بمفرده برهة وهو يفكر كيف يمكنها أن تواسيه وتخرجه مما هو فيه بكل بساطة، كيف لها أن تكشف ضعفها أمامه هكذا، هي تلك الفتاة القوية التي لا تخشى أحدًا ولا تنهار أمام أحد باستثنائه هو بالطبع والمختل الآخر الذي يحبها.
الخامسة عصرًا..
يعدل من سترته ويسير بخطوات ثابتة خارج المشفى ليأخذ سيارته ليذهب إلى أولاد الملجأ الذي جعلوه أبًا لهم بالرغم عن أنفه.

يقف أمام مبني شامخ، يدخل من البوابة الكبيرة إلى الفناء الذي يوجد به بعض الأطفال المقربين له، والذين ينادونه "بابا" يتجمهر حوله الأولاد ويضيقون الحنق عليه ويسألون بلا توقف ذلك السؤال المكرر:

- بابا عاصي فين ماما نارين؟

تتكرر تلك الجملة كثيرًا، ويصدر رنينها ثقلًا على قلبه ليجلس على أحد المقاعد ويجيب بصوت متقطع:

-ماما نارين...

يهرع إليه أحد الأولاد ويمطر بفيض من الأسئلة:

- مالها ماما؟ حصلها إيه؟ أنت زعلتها؟

يهز رأسه نافيًا بصوت مهموم:

- مزعلتهاش والله.

أحد الأولاد مستفسرًا:

-طيب هي فين مجتش معاك ليه، ها؟

يطلق زفرة من صدره ليتحدث مكفهر الوجه:

-هي في المستشفى يا أولاد.

الاولاد بصوت واحد ما بين معاتب وما بين محذر وما بين حزين على حال والدتهم:

-أنت من يوم ما أتجوزتها وهي مشفتش معاك يوم حلو، كل شوية في المستشفى، في المستشفى، واضح أن العيشة معاك صعبة كتر خيرها.

يردف بصوت متعب ومحزون، نافيًا ما ينسب إليه:

- لا والله مش أنا، بصوا يا ولاد ادعولها يمكن أنتوا أقرب مني لربنا.

أحد الأولاد ينهض من مكانه ويصرخ في البقية، ويمسك وجهه في حنان ليسأله عن حاله:

-أسكتوا بقا، شكل الموضوع كبير. طيب نقدر نشوفها. مالك يا بابا؟

يهز رأسه نافيًا بنبرة مبحوحة:

-لا يا ولاد مش مسموح غير لشخص واحد بس.

يمسك أيديهم ويخبرهم في رجاء:

- عاوزاكم تصلوا وتدعولها من قلبكم، هي بجد محتاجة دعواتكم معاها، وأدعولي أنا بالصبر. أكيد ربنا هيسمع منكم. لأني حاسس أن ربنا مبيحبنيش.

يضع أحد الأولاد يده على قلبه ويخبره مطمئنًا ومربتًا على قلبه:

- متقولش كدا يا بابا، ربنا بيحبك، ماما نارين كانت بتقولنا أن اللي ربنا بيحبه بيبتليه عشان يصبر ويرجعله ويقول يا رب.

يطلق من صدره تنهيد وتتكور حبات الدمع في عينيه ويمنع انسيابها بشموخ:

-يا رب.

يحتضنه فيض من الأولاد ويربت عليه في حنان:

- متزعلش هندعيلها كتير ومش عاوزين هدايا ولا أي حاجة، أحنا عاوزينها هي.

يمسح دموعهم بيده ويخبرهم في ودٍ ويعطيهم الهدايا التي جلبها لهم:

-الهدايا دي بتاعتكم، من فضلكم متعيطوش تمام ومتطلبوش أنها تزوركم، لو اتحسنت هجابها.

يقف أحد الأولاد داعيًا:

-يا رب تتحسن بسرعة.

الأولاد الآخرين مرددين:

- يا رب.

يجلس معهم قليلًا، يستمع لأحاديثهم وما يريدون في الزيارة القادمة، ومن ثم يدلف إلى المبني ليتابع ما يحتاجه الأولاد الآخرين، وكم عدد الأولاد الذين تم إنقاذهم، وكم عدد الأولاد الذين تم كفالتهم، وكم طفل عاد إلى أسرته، وكم طفل تم العثور عليه في سلال القمامة والنفايات فهذه الظاهرة أصبحت شائعة ومنتشرة بشكل شاسع جدًا، يغوي فتى فتاة ومن ثم يأتي إلى الدنيا طفل غير شرعي ليتم رميه في القمامة بعد ذلك.
أم زوجها يتوفاه الله، وتترك وليدها في العراء لعدم استطاعتها العناية به.
أم يخطف وليدها منها ليضحي في الشوارع تلتقمه الذئاب من فك إلى فك ليضحي متشردًا.
والكثير من القصص التي تدمي لها العين ويخر الحاجب خزي منها.

بعد مرور بضعة أيام..

مرت ثقيلة ومرهقة، يشعر أن الجميع يحدقون إليه، بعض النظرات مشفقة والبعض الآخر معاتب والكثرة الكثيرة تشير له بالاتهام بذنب لم يقترفه. هدأت موجه الأخبار الحصرية، وحل محلها خبر جديد، فالحياة مثل لعبة الملاهي لا شيء يبقي على حاله. سيتبدل الترس ويغدو على شخص آخر، ولكن وصمة العار ستظل قائمة مهما حاول إخفائها.

يجلس بمكتبه يلاعب طفله ويطعمه، يهدهده قليلًا ليغفو، لقد تركته تلك الأنانية ليهتم بطفلهما بمفرده، طفل صغير عمره وحسب سنة وبضع أشهر قليلة. تركته بمفرده ليعاني مع طفل لا يقبل أي مربية ولا يتأقلم مع أي سيدة، يهدأ قليلًا ومن ثم يبدأ بالصراخ والعويل

ويصيب أي سيدة تعاملت معه بالجنون، ومهما حاولت اسكاته لا يصمت بل يزداد صراخه. عندما يصرع من صراخه يأخذه ليرى أمه ليهدأ قليلًا ويتوقف عن النواح. وكأنه برؤية وجهها فقط تستكن روحه البريئة.

يضع الطفل في سريره ويغادر على أطراف أصابعه ويذهب ليغفو قليلًا فيتذكر ذلك الأبله الذي طلب منه أن يحضر تسجيلًا مهمًا ولكنه لم يفعل أي شيء، يلتقط هاتفه ويطلب رقمه ليتحدث في معاتبة:

-أنت يا غبي جبت التسجيل ولا؟

يتأفف الطرف الآخر ويخبره بحنق:

-تعال برمج وأهكر مكاني، أحسن. الموضوع صعب أنت فاكره ضغطة زر يعني.

يسأله لماذا لم ينجز العمل المؤكل إليه بنبرة حادة:

-كان مفروض تجيب التسجيل من زمن، ليه معملتش كدا؟

ليرد الطرف الآخر عاجزًا ومعاتبًا له:

-أعملك إيه يعني؟ مسحوا التسجيلات يا أذكي أخواتك.

يخبره باستمالة:

- طيب حاول يا مخ النملة، بأي تمن يا خالد محتاجهم.

يعدل عويناته ويضغط على أزرار حاسوبه:

- بحاول يا عاصي بس تشفير الشركة صعب، أكيد في سجلات بتوصلهم بس كل دي خوارزميات وشغل صعب جدًا أجبلك تسجيل معين، وسط كل التعاملات والبيوت دي الموضوع هياخد وقت صدقني.

ومن ثم يصمت برهة ليردف:

-مراتك مستحيل تكون خاينة، لو كانت فعلًا خاينة مكنوش دمروا التسجيلات ولا دمروا أي دليل بالقضية دي.

يطلق تنهيد ومن ثم يتحدث:
-عارف، بس هل القانون والناس يعرفوا كدا؟ الإجابة لا محدش يعرف حاجة.

بعد مرور شهر..
يصلهم أخطار الطعن في الحكم ليمثلوا أمام القضاء مجددًا، لتعاد فتح القضية من جديد وبثوب غير الذي تمزق من قبل.
يرسلوا رجلان لينزعوا الأجهزة عن الممددة في المشفى، ليخلصوا روحها من عذاب إبقائها حية ترزق، يصور أحد الرجال مقطع بث مباشر، ليتم إرساله لزوجها ليهددوه وحسب، ولكن في الحقيقة سيقتلوها بأي حال.
..
يحمل صغيره بين يديه ويسير به جيئة وذهابًا ليهدأ قليلًا، ليباغته صوت تصاعد رنين الهاتف النقال، ليفتش عنه في جيوبه ومن ثم يضع المحادثة على مكبر الصوت، ليسمع صوت غليظ بنبرة خشنة تهدده بلا خشية، وقد بعث له فيديو لزوجته وهي بالمشفى:
-عاصي، طبعًا شايف إيه اللي ممكن يحصل، أتنازل عن القضية وألا هنموتلك مراتك دلوقت.
يضع صغيره في سريره ويشير للخادمة أن تهتم به، ومن ثم يدلف خارج الغرفة ليصرخ في ذلك الرجل الذي يهدده:
- فاكر بتهديدك دا هخاف.
ليردف الرجل بصوت رتيب ونبرة حادة:
-لا يا عاصي مش بخوفك بس أحنا هنقتلها فعلًا، الرجلين دول هيموتها دلوقت، لو متصلتش بمحاميتك وسحبت الطعن في الحكم.

ومن ثم يردف بتحذير:
-عاوز مراتك تموت يا عاصي.
ليخبره مجبورًا على أمره:
-لحظة واحدة.
يحذره المتحدث أن يسرع في فعل ما أمر به:
-متحاولش تنقذها قدامك خمس دقايق بس وإلا مش هتلاقيها.
ومن ثم يردف ضاحكًا:
-كدا كدا هتموت، ليه هتتعب نفسك معها، صلاحيتها انتهت والحاجة لما صلاحيتها بتنتهي بنرميها، دا أحنا هنعمل فيك جميل و واجب متحلمش بيه.
يجز على أسنانه ويخبره منفعلًا:
-حاضر.
يرمي الهاتف على الحائط ليتهشم إلى قطع متناثرة، ويأخذ هاتفه الآخر ليتحدث مع شخص ما ليحاول أنقذ زوجته فمهما فعل لن يستطيع الوصول وإنقاذها فهو ليس رجل خارق ليصل في خمس دقائق.
يطلب رقمًا بصورة عشوائية أو دقيقة ويتحدث بهستيرية:
-سيري، ألحقي نارين هيموتها. بسرعة أنتِ في المستشفى صح؟ ألحقيها هيشلوا الأجهزة عنها وأنا جاي أهو.
تخبره بهدوء أن يهدأ وتتحدث بلكنة إنجليزية:
-أهدأ، سأهشم رؤوسهم.
يلتقط مفتاح سيارته وسترته الجلدية ليذهب إلى زوجته:
-أعتمد عليك.

الفصل الثالث عشر: إنقاذ

تدفع باب الغرفة بقدميها، تلوح بنظرها في الأرجاء لتجد رجلان يقفان بالقرب من سرير مريضتها، يرتديان ثياب سوداء لتتقدم نحوهم بخطوات ثابتة، تطرقع عضلات عنقها وتنظر إليهم في شزر ومن ثم تتحدث في لكنة إنجليزية:

- أهلًا بالحثالة.

ينظر إليها الرجلان ويحكان رأسيهما في بلاهة ليتحدث بغباء وعدم فهمهما للهجتها :

- دي بتشتمنا ولا بترحب بينا.

تضع يدها على جبينها وتحركها جيئة وذهابًا لتردف بذات اللكنة:

- أوه تبًا، علي التعامل مع هؤلاء الحمقى، يا إلهي أنهم أغبياء جدًا.

يقترب منها رجل ليضربها فتباغته بضربة على عنقه ليفقد الوعي بعد ثوان معدودة، ويبدو أنه ودع هذه الحياة، ليتقدم إليها الرجل الآخر ويسدد لها لكمات تحاشت بعضها والبعض الآخر أصاب جفونها لتردف بانفعال بنبرتها الحادة والساخرة:

-أوه يا أحمق ماذا فعلت؟ ستخلف كدمة فوق عيني، لقد اقترب عيد ميلادي.

تميل برأسها لتطرقع عضلات رقبتها ومن ثم تضرب منطقته الحساسة لتردف بلكنتها الإنجليزية:

-وهذا انتقام لعيني.

ليقع أرضًا من الألم لتضربه على رأسه ليخر مغشيًا عليه، لتردف بسخرية:

- أوه أظن أني بالغت قليلًا ربما لن يستطيع إنجاب الأطفال الآن.

تنفض يداها وتزيل شعرها القصير عن وجهها، تعدل من وضع معطفها الطويل لتبصق على الممددين أرضًا لتردف في نبرة منفعلة ممزوجة بالسخرية:

- لقد قابلت أوغادًا أقوى منكم. تبًا يا لكم من حثالة قذرة.

تطلب طاقم التمريض والمختصين لتنقل مريضتها في غرفة أخري أكثر أمانًا، وبالطبع لن تتركها وستضع طاقم حراسة ليحرسها حفاظًا على سلامتها.

يهرع راكضًا إليها ويتحدث بصوت لاهث، قلق على زوجته:

-هي فين؟ هي كويسة؟ طمنيني عليها.

تخبره أن يهدأ ويتنفس الصعداء بلكنتها المعتادة:

- العنقاء في أمان. لا تقلق.

يضع يده على قلبه ويحاول التقاط أنفاسه ويتحدث معها بلكنة إنجليزية :

-شكرًا لك إيها الجندي السري.

تبتسم له في ودٍ وهي تحييه كالجندي في ساحة الحرب:

-في خدمة البعبع الأزرق.

يسألها مشدوه:

-كفى، ما زلت تتذكرين اللعبة.

تزفر تنهيد ومن ثم تردف:

-بالطبع يا عاصي، أتذكر.

يتذكران شيء ما ويردفان معًا:

- كان آدم الحسناء الحبيسة.

يسألها في استغراب:

- لما أطلقت عليه هذا اللقب؟

تصمت برهة وتجيب في حنق:

-لأنه كان جبان وخائف.

يسألها بصوت محزون:

- ما زلت حانقة عليه؟

تجلس على المقعد لتخبر بكمد:

- ربما أنسى، ولكني لن أسامح صدقني، المسامحة أمر صعب وثقيل جدًا، لن أتحمله.

يحاول أن يستميل قلبها ويجعلها تسامح ذلك الأبله:

-سامحي سيري، لم يقصد هذا أنت تعلمين.

تخبره أنها ستحاول وتسأله سؤالًا مباغتًا:

-سأحاول عاصي. حسنًا لم اسميت نارين في اللعبة بالعنقاء؟

يبتسم ابتسامة محزونة ويردف:

- ربما لأنها كانت أصغر منا جميعًا وكان لا بد من حمايتها.

تشير بيدها بسؤال وتردف بنبرة متعجبة:
-ولماذا اسميت أخيك بمالك العنقاء إذًا؟
يضع يده على قلبه ويخرج الحديث من حلقه كمد ورفات حديث:
-لا أدري سيري ربما لأنه كان يحبها وهي أيضًا تحبه. ولماذا اسميتني البعبع الأزرق؟
تضربه على كتفه وتخبره في حنق وتقطب جبينها في استهجان:
- لا أدري لأنك اسميت أخي كونت فربشتينو القاتل المتسلسل، وكنت أنت وأخيك تضربونه دائمًا فقط لأنه ضايق العنقاء خاصتكم، يا لكم من .... حسنًا رحم الله أخيك ولكن ما زلت حانقة عليكم، وأنت لم اسميتني الجندي السري؟
يبتسم ومن ثم تختفي ابتسامته:
- لأنك دائمًا تهرعين لمساعدتي، سيري أعتذر حقًا، لم أكن أعلم، علمت بالأمر متأخرًا، وأنت حتى لم تتحدثي معي؟
ترفع حاجبيها وتخبره في سخرية:
-وماذا كنت ستفعل؟ ستتزوجني مثلًا؟
يخبرها غير متأكدًا ولكنه يحاول طمأنتها وحسب، ولكنه بالفعل كان سيهشم رأسه بكل تأكيد:
- ربما كنت سأفعل، والأكيد كنت سأهشم رأس من تجرأ عليك يا فتاتي القوية.
تخبره بنبرة حكيمة يتخللها الحديث الساخر:
-كفى. لا داعي لمزيد من الحنق أو السخط، ويكفي يا رجل أنت تعلى طموحات الفتيات بك. وجه الضفدع منقذ النساء.
ومن ثم تردف في سخرية:
- بالمناسبة أنت لست ذوقي المفضل، فلا تحاول حتى.

يحك رأسه ويخبرها ساخرًا منها:
- بالطبع فالحسناء الحبيسة هو ذوقك، أليس كذلك؟
تلتفت بعيدًا عنه لتستعيد رباطة جأشها، ليحل صمت كالوحش الكاسر ليقاطع ذلك الصمت المهيب بسؤال عن طفلها، وكيف تتركه بمفرده:
- حسنًا. أين آدم الصغير؟
تتحدث بنبرة جادة خالية من المشاعر بملامح وجه بائسة:
-مع دكتور إلهام تعتني به ريثما أعود لموطني. بالطبع أذهب إليه وأتي فقط للضرورة، ومن حسن حظك أني كنت هنا اليوم لإخضاع زوجتك للعملية المقررة.
يباغتها بسؤال آخر بنبرة مشدوهة:
-هل أصبحت إنجلترا، موطنك؟
تهز كتفيها وتزم شفتيها لتردف:
-ماذا أفعل هؤلاء الحثالة، يهتمون بأمري وبأبحاثي، فلابد أن يكون الموطن، بالنهاية سأدفن هناك وسط أولئك القمامة.
يسألها راجيًا بنبرة ساخرة:
-ألا يمكنك الكلام بدون سبهم؟
تنهض من جواره وتسير مبتعدة ومن ثم تقف برهة وتخبره بنفي:
- لا أستطيع. وداعًا. سأعود لفلذة كبدي.

الساعة التاسعة مساءً بتوقيت القاهرة.
في قاعة للمناسبات والأفراح، أجواء أقل ما يقال عنها مبهجة، الأولاد تتراكض في سائر المكان، عائلة العروس تلتف حولها. ما عدا هو يشعر كالصبار بجانب كل هذه الورود، لا أحد بجواره، الجميع من طرف العروس أما هو، فيبدو كاليتيم الذي

فقد أمه وسط الزحام، حسنًا هو فعليًا يتيم ولكنه يشعر بأنه يتمّ مجددًا في هذه اللحظة. يذهب بعيدًا في ركن قصي، يعدل عويناته، يخرج هاتفه النقال من جيبه ويطلب رقم ما، ليتحدث في انكسار:

-عاصي أنا عارف أنك فيك اللي مكفيك. بس أنا لوحدي وممعيش حد وحاسس أني زي فردة الكوتش. ممكن تيجي؟

ليردف الطرف الآخر بنبرة هادئة ومطمئنة:

- هاجي، متقلقش. أنت عزمت زمايلك ولا؟

يخبره بصوت محزون متخبط:

-كل ما أكلم حد يقولي مشغول، وأنا حسيت بالذل وهما بيرفضوا.

يحاول أن يهدأ من روعه:

- متقولش كدا، ذل إيه بس، محدش عارف ظروف حد. جايلك مسافة السكة.

يغلق المحادثة معه ويجري بعض الاتصالات السريعة، يأخذ سترته الزرقاء وطفله الذي تشبث به كالعلقة، يوفد على بعض العمال ليأخذهم معه ليطيب قلب ذلك الأبله. يدلف إلى القاعة ويذهب مباشرة إلى الواقف بعيدًا عن عروسه، يحاول أن يرسم ابتسامة على وجهه ولكنها تبدو باهتة قاتمة كالليل في أشد ساعات العتمة، يشير إلى شخصان بالقرب منه وأشخاص أتوا من بعيد:

- جبتلك عم وائل أهو و عم محمد. وأنا جيت وزمايلك أهم هناك كانوا عاملين مفاجاة بس ليك.

يحتضنه ويكاد يجهش في البكاء:

- والله ما عارف أقولك إيه يا عاصي.

ومن ثم يهمس له ممتنًا:

-أنا عارف أنك أجبرتهم يجوا، وهما كانوا خايفين على زعلك، إنه أزاي يحضروا فرح وأنت بتمر بأزمة.

يربت على كتفه ويخبره بصوت كمد:

-الحياة بتستمر في الآخر، ما علينا أنا هاخد جنب، أنا جيت عشانك. أنبسط.

يحاول أن يخرجه مما هو فيه ليخبره شاكيًا من زوجته:

-أنبسط إيه دي مش عاوزني حتى اشغل أم كلثوم ولا أي أغنية.

يخبره بنبرة محزونة وقلب مثقل:

- معلش يا حمزة، جيلان مبتحبش تسمع الحاجات دي، ودا أحسن. بص معلش أنا همشي.

يمسك يده ويخبره أن يبقي:

-خليك يا عاصي متمشيش. بقولك مش كان أولى من الفرح والقاعة والحاجات دي، ندي كل واحد سندوتش باتيه وحتتين جاتوه ولا أنت إيه رأيك؟

يبتسم ثغره دون إرادة منه:

-روح يا حمزة جنب عروستك، وبطل بخل.

يعدل عويناته ومن ثم يتحدث:

- دا مش بخل، دا حرص، بحوش لولادي اللي لسه هيجوا بإذن الله.

يدفعه بيده ويخبره أن يذهب بعيدًا:

- روح يا حمزة الله يهديك.

يسير برضوخ ومن ثم يلتفت له ويردف بصوت محزون:

- حتى وأنا عاوز أضحكك مش عارف، قولت أعمل فرح يمكن تخرج من اللي أنت فيه، بس حتى في دي فشلت.

يشير له عاصي أن يذهب وحسب. يجلس بعيدًا ينتظر بضع دقائق ومن ثم يغادر، يعود إلى منزله، يضع وليده في سريره،

يجلس قليلًا على الأريكة، يخبر المربية أن تبقى بجوار الطفل لعله يستيقظ، وأن تهتم بالطفل جيدًا، يذهب إلى غرفة نومهما يتحسس مكانها كما يفعل كل ليلة، يضع يده على وسادتها ليتذكر ما كانت تفعله، شجاراتها الغير منتهية، تقلباتها المزاجية وأخيرًا براءتها، خوفها، جنونها ونوباتها، يتذكر كل ذلك ومن ثم يطلق زفرة حزينة ويحاول أن يهتف بالغمض، لعل النوم يختطفه مما يعاني ويعكر صفو حياته.

--

تدلف إلى شقتهم ذات الأثاث العادي والبسيط أيضًا، بفستانها الأبيض وخمارها الذي يزينها، تسير رويدًا ليمسك بيدها ويشير إليها أن تجلس على الأريكة، ليردف بصوت حنون وهو يتأمل وجهها البهي:

- جيلاتي.

تحمر وجنتها خجلًا لتجيبه بخجل:

-روح قلبها.

يضع يده على قلبه غير مصدق، فهو ظن أنها لا تعرف كيف تتحدث برقة فلقد أعتاد غلظتها:

- يا قلبي يا ماه، هموت يا ناس.

تفرك كف بكف لتخبره في توتر:

- ما.. ما أنت زوجي دلوقت.

يتناول وجهها بيده ليردف بحب:

- بحبك يا جيلاتي.

تخبره بنبرة ودودة يشوبها الانفعال:

- شوف أنا بتعصب لما حد يغلط في اسمي، بس أنت الوحيد اللي كنت بسيبك تنطقه غلط.

يخبرها ودودًا:
-حسيت كدا يا جيلاتي، بس تعرفي أنا والله مش فاهم أزاي جيلاتي تبص لدوا كحة؟
تتحدث بنبرة هادئة يشوبها قليل من التوتر:
- حمزة هتصدقني لو قولتك معرفش والله حاولت أبعد وقولت عادي يعني، بس بعدين بدأت أحس أني بضايق لما تكلم حد وخصوصًا لما كانت بتهزر معاك نادين، كنت عاوزة أفتح دماغك ودماغها، لأنك كنت بتحاول متحرجهاش بس كنت بتعصبني أنا.

ينظر لها معاتبًا:
-واللي متعرفهوش أن نادين أختي يا هبلة.
تصدم وتشدوه لتسأل في شك:
-أختك أزاي يعني؟
يعقد يدًا بيد ومن ثم يتحدث بعد أن تنفس الصعداء:
- أختي في الرضاعة، أختاه، أمها كانت جارتنا وكان عندها مشكلة يعني وعشان كدا والدتي خدتها وربيتها معايا لحد ما والدتها خفت.
تخبره معاتبة وتضربه على كتفه لتتكور في عيونها حبيبات من الدمع:
- وليه مقولتش، يعني أنا كنت بموت من الغيظ من أختك؟ حاسة أني كلاون يا حمزة.
يتحدث إليها بنبرة جادة وحانقة:
-طب أقولك إيه طيب؟ أنت كل كلمة والتانية، سلام، خد نهلة، أسكت خالص. من فضلك يا حمزة ألزم حدودك، متتكلمش معايا. هقولك إزاي يعني. دانا كنت حاسس أني خاطب نهلة

والله، كل حاجة أعرفها من نهلة. طبعك، اللي الحاجات اللي بتحبيها، واللي بتكرهيها. حتى لما قولتلك عاوز أكتب الكتاب شوحتي بإيدك وسبتيني لوحدي لولا نهلة ما ساعدتني.
تتناول يده وتقبلها وتخبره بنبرة آسفة:
- حقك عليا، دا غلطي.
يقترب من جبينها ويطبع قبلة رقيقة ليخبرها بحنان بالغ:
-حبيبتي، مش غلطتك هو سوء تفاهم عادي، وبيحصل يعني، المهم أننا مع بعض ودا كفاية.
وها هي قلوب تجمع في حلاله، وقلوب محطمة مليئة بالأسي.
أظن يأتي وقت على الإنسان ويشعر أن لا أحد يفهمه، لا أحد يربت على كتفه المخلوعة، لا أحد يهون عليه الآمه وجروحه الدامية. ربما كما قال محمود درويش" "حتى طعامي المُفضل
لم يعد يسبب لي البهجة
ولا مشاهدة فيلمي المفضل
ولا سماع أغنية أحبها
ولا المشاعر المؤقتة
لا شيء يعجبني، أريد أن أبكي."

الفصل الرابع عشر: شباط وغيومه

بعد مرور أسبوع..

شمس شباط "فبراير" الدافئة التي تكتنفها الغيوم وتحتضنها كما تحتضن الأم صغيرها، الجو الرطب حتى التاسعة صباحًا، الصقيع الذي يغطي الحشائش الندية السادسة صباحًا، الضباب الذي يملأ الأرض قبيل الشروق، حبات الندي المتجمدة من أثر البرد على أطراف أوراق الشجيرات في أقصى البلاد. البرد الذي يجعلنا نرتدي معاطفنا الصوفية لنتقي أثر البرد، فبراير حيث عيد الحب ما زال عليه بضع أيام، بالمناسبة كيف نحتفل بعيد الحب ونحن لا يوجد بنا أي ذرة منه؟ أعني ما الفائدة أن نعبر عن حبنا في يوم واحد وباق أيام السنة يحتل البغض

قلوبنا؟ ما الفائدة من الاحتفال به؟ حقًا ما الفائدة؟ وقلوبنا ملئ بالغل والحقد، فالنهاية هو يوم مقتل القس فالنتين أي أننا نحتفل بموت أحدهم، يا للعار. كنت أعلم أننا نعشق الدم والرقص على الجثث،، ولكن لم أكن أعلم أننا بارعون في هذا الفن إلى هذا الحد.

الساعة التاسعة صباحًا...

في المحكمة جميع الأشخاص في أماكنهم، لا أحد في قفص الاتهام، منصة الشهود تنصف المشهد مجددًا، طرفان يقفان ضد بعضهما، طرف يعافر ليحاول كسب المزيد من الوقت، وطرف يعلم أن لا فائدة من هذه المحكمة سوى تضيع الوقت وحسب. الجميع متكدر، ولا وجود له يبدو أنه ما عدا يثق في القانون لذلك قرر الانسحاب، بالتأكيد لا لم يفعل، هو فقط يحاول أن يحضر باقي الشهود مهما كلفه الأمر.

تماطل المحامية الخاصة به في استجواب الشهود مجددًا ريثما يعود بالشهود الآخرين. ولاكتساب المزيد من الوقت.

تتقدم إلى ناحية منصة القضاة وتتحدث في رصانة وتطالب باستجواب والد الخصم:

-سيدي القاضي، أطالب باستجواب السيد عبد الجبار.

يشير لها القاضي أن تفعل ما تريده:

- اتفضلي.

يعترض محامي الخصم ويتحدث بنبرة واثقة ومستهزئة:

-أظن يا سيدي أن المحامية تماطل.

تتحدث بثقة و تتجه ناحية منصة الشهود لتسأله سؤالًا لا يمت للقضية بصلة:

-لا طبعًا دا شهادته مهمة جدًا. سيد عبدالجبار أي رد فعلك لما عرفت باللي حصل؟

تحدث ذاتها في قلق وعجز:
- بتمنى أن عاصي ينجز مش هقدر اماطل كتير.
يقاطع حبل أفكارها محامي الخصم ليزم شفتيه ويتحدث ساخرًا:
-ودا إيه علاقته بالقضية؟
تنظر له بمعاتبة وتخبره بنبرة مستفزة لينخرس بعدها:
- سيد ضبع من فضلك سيبني أشوف شغلي. ها يا سيد عبد الجبار جاوبني.
يحدجها بعينيه ويجيب في غلظة:
-أي حد هيتضايق وخصوصًا أنكم اتهمتوا ابني بحاجة ملهوش ذنب فيها.
تحدث ذاتها حانقة:
-عرفت الشيطان الصغير طالع لمين.
توجه له سؤالين لتشتت انتباهه، وتتحدث بنبرة خبيثة:
-يعني حاسس أن ابنك مظلوم؟ طيب الكاميرات كانت عطلانة ليه هموت وأعرف الحقيقة؟
يزدرد ريقه ومن ثم يتحدث:
-أكيد عيب في سيستم الفيلا.
تتجه باتجاهه وتتحدث بحدة:
-أن ابنك مظلوم ولا عطل الكاميرات.
يقف المحامي معترضًا، ليتحدث في انفعال:
- المحامية بتضيع وقت المحكمة.
تخبره في نبرة مستفزة وهادئة:
-سيد ضبع من فضلك أنتَ بتشتت الشاهد وسيبني أشوف شغلي. أنا أطلب بأستدعاء السيد هادي من جديد.
يزمجر في ضجر ليخبرها صراحة:
-السيد هادي تم الأخذ بشهادته قبل كدا.

تردف بنبرة متهكمة مستفزة:
-وفيها إيه يعني؟ حابة أسأله حاجة ضرورية.
يسمح لها القاضي على مضض أن تستجوب من تريد:
-اتفضلي وانجزي من فضلك.
تتحدث في تملق وتحاول اكتساب مزيدًا من الوقت:
-سيدي القاضي، واضح أن حضرتك محتاج قهوة هبعت أجبلك قهوة. وهعزم كل القاعة على قهوة كمان.
يحرك يده على جبينه منفعلًا:
- خديجة كفاية تملق، وأنجزي.
تنكس رأسها وتجيب في انصياع:
- حاضر.
تتجه إلى القابع في منصة الشهود لتسأله بنبرة هادئة وبطيئة:
-سيد هادي ممكن توضح إيه حصل في اليوم دا؟
يخبرها بنبرة مستسلمة:
- قولت كل حاجة قبل كدا.
تواجهه وتحاول أن تستفز أعصابه ولكنها فاشلة لا تستطيع استفزاز نملة:
- سيد هادي أظن أنك في حاجات مقولتهاش. يعني إزاي فجاة كدا مدام نارين تروح لحضرتك بعد مرور سنتين على زواجك وزواجها مش غريبة دي، كان أولى بيها أنها تروحلك من البداية ولا أنا بس اللي شايفة الموضوع غريب.
يبتسم بمكر ويردف بنبرة باردة:
-معرفش أساليها هي.
تنفعل وتصرخ في وجهه بعدما انفلتت رباطة جأشها:

- حالة المجني عليها في غيبوبة ورافضة الاستجابة نهائيًا، والتقارير الجديدة بتقول أنها ماتت وحد فصل عنها الأجهزة، أسالها إزاي؟

يشير إليها بالاقتراب ويبتسم في خبث:

- قربي كدا وهقولك.

تقترب منه ليردف هامسًا:

-هبعتك ليها ابقي اساليها.

تتكور الدماء في وجهها لتتحدث في سخط:

-أنت اللي زيك المفروض حكم الاعدام قليل عليه.

يخبره مستفزًا:

- مقبولة منك.

يتدخل القاضي ليعرف ما يجري وعما يتحدثان:

-اتكلموا بصوت عالي في إيه؟

تستعيد رباطة جأشها لتحاول التحدث:

- لا مفيش حاجة سيادتك، هستجوب السيدة جيان.

يتدخل المحامي في ضجر، ويخبرها بالحقيقة التي تعلمها جيدًا:

-مينفعش حالتها النفسية غير مستقرة لا يؤخذ بشهادتها.

تقف في منتصف القاعة وتنظر لوالدها في عجز بعيون متوسلة، تريد فقط أن يمنحها مزيدًا من الوقت ليس إلا:

-طيب ممكن تديني وقت كمان يا حضرة القاضي؟!

يتحدث القاضي بصوت يشوبه العجز، طفلته تخسر القضية للمرة الثانية وهو يقف مكتوف الأيدي:

-قدامك وقت الغدا وبعد كدا هعلن حكم نهائي.

في مثل هذا الوقت.

يدلف برجال حراسته ويقتحم أحد المنازل، ليبحث عن مراده وعن السيدة التي ستحدد شهادتها كل شيء، يدلف بخطوات ثابتة، يقف برهة مشدوه ليجدها تحمل حقائبها وتستعد للمغادرة، يصوب مسدسه ناحيتها ليجعلها تتجمد حيث تقف، تقترب منه وتلطمه على وجهه في انفعال:

- بقا دا اللي اتربيت عليه، أنك تتهاجم على بيوت الناس.

يأخذ ابنه من المربية ويضعه تحت قداميها ليخر راكعًا في عجز، ليكشف عن ضعفه وانكساره ليحاول استمالة قلبها:

-أم الولد دا ما بين الحياة والموت، حاولوا يقتلوها و شهادتك هتحدد كل حاجة، أرجوك يا هالة هانم قولي كلمة حق مرة واحدة في حياتك، أهو بركع قدامك، أرجوك لازم تشهدي، أعملي حاجة صح أرجوك، أنا مش عارف أعمل حاجة، ولا عارف أهتم بالولد حتى، و مراتي شوهوا سمعتها وأنتِ عارفة الحقيقة كلها، ولازم الكل يسمعها، ورحمة أمجد عندك يا هالة هانم، هو الوحيد اللي كان كويس، هو الوحيد اللي كان بعيد عن القذارة دي، مكنش هيراضي بالظلم.

ومن يقف وينظر في عينيها وجميع مشاعر الكره والسخط تتكور داخله:

- لو مشهدتيش معايا هقتل ابنك.

تخبره بضعف ولسان يرتجف:

-لا يا بني أنت اتغيرت عن زمان.

يحدجها بعينيه ليدب الرعب في قلبها ويردف بنبرة شرسة:

-بصي في عيني يا هالة هانم وقوليلي شايفة أنهي عاصي بالضبط.

ترتعد فرائصها من الفزع وتردف بضعف:

-عاصي يا بني أنتَ مش وحش.

يردف بنبرة محتدة:
- هالة هانم صدقيني أنا أسوأ مما تتخيلي.
يضع مسدسه بجانبه الأيمن، ويحمل طفله بين يديه، ليقتاد السيدة أمامه، ومن ثم يطلب منها جميع من شاهدوا الحادثة ليأخذهم معه، فتخبره بأنهم تم صرفهم بعد الحادثة مباشرة، ليخبرها أنه لا يهتم يريدوهم بأي ثمن، يخبر رجاله أن يحضروهم وهو سيبقى مع الوالدة المحبة التي بالتأكيد لن تهرب، بعد أن تم جمعهم، ذهب بهم إلى المحكمة ليشهدوا بالحقيقة، على الأقل تبرأ زوجته كأقل ما يمكن.
تقف في منصة الشهود بجفونها المترهلة والمرهقة وعيونها الباكية بنبرة صوتها المجبرة لتنطق بالحقيقة التي طال انتظارها:
- أنا هقول الحق، وهقول كل اللي حصل، نارين مش خاينة وابني أعتدي عليها ومكنش في حاجة بالتراضي وهو اللي عذبها بالشكل اللي التقارير موضحها.
ويؤكد الخدم ما تقوله سيدة المنزل وبهذا تنتصر الحقيقة، ربما من يدري.
وأخيرًا سيقر عين من انتظر الحقيقة التي استطال قولها.
مهما بدأ الظلم منتشرًا لا بد من أن تأتي الحقيقة لتزيح كل الظلام والظلم.
من الأبله الذي يصدق هذا الكلام؟ هل هناك وجود لكل هذا العبث من الأساس؟ حسنًا لا أعلم. كل ما أعلمه أن الخير لا ينتصر ولا الشر ينتصر كذلك، دائمًا هناك المنتصف من كل شيء، لا شيء يشوبه الكمال بشكل كلي. ولا ينغصه المر كله كذلك. الحقيقة الناقصة يعتريها الكذب، ماذا يحدث لو انقشع الغمام عن كامل الحقيقة؟!

الفصل الخامس عشر: الحقيقة الكاملة

ران الصمت في كامل قاعة المحكمة الموقرة، جميع العيون موجهة ناحية السيدة التي شهدت على ما فعله ابنها، وقصت الحقيقة من وجهة نظرهم، ولكنها أخفت الكثير كذلك.

صوت رسالة تبعث للقاضي في منتصف الجلسة، يأمر أن يصمت الجميع برهة، ليردف أمرًا العامل بتشغيل شاشة العرض، لأن من بعث الرسالة أخبره أن هذا التسجيل خاص بهذه القضية:

- لحظة واحدة في تسجيل مبعوت وبيقولوا أنه تبع القضية شغل الشاشة يا بني.

يجلس بجوار محاميته ليخبره مقهورًا :

-خالد عاملها يا ديجا.

تسأل في بلاهة واستغراب:

-عمل إيه؟

يتحدث بثقة وخوف كذلك، خوف لأنه سيعرف حقيقة مرة بالنسبة له ربما، أو هل سيتحمل ما سيحدث أمام عينه:

-قدر يجيب التسجيل.

تبدأ الحقيقة بالتباين والضباب بالانقشاع، يحاول أن يتمالك أعصابه، وهو يرى زوجته تضرب وتهان دون إرادة منها، كيف قام بضربها واسقاط جنينها دون أن يرف له جفن.

تخبره محاميته أن يهدأ:

-من فضلك أهدأ.

يصك على أسنانه في غيظ ويكاد ينفجر من الغضب، عروقه تغلي بها الدماء كما تغلي المياه على نيران مستعرة:

-أنا متنيل.

تردف بنبرة مشفقة وتسأل في عطف:

-هادي أزاي وأنت عروقك هتطلع من جسمك.

يحاول إلا تنفلت أعصابه ليردف منفعلًا:

- ديجا أسكتي.

جاءت اللحظة التي لم يحسب حسابها، لقد عرف أن كل ما قالته له حقيقة لم يكن حادثًا، لقد قتل أخيه بالفعل، إذًا لم تكن تهلوس كانت تخبره الحقيقة وحسب.

يقف غاضبًا ينزع مسدسه من جانبه الأيمن يلقمه ليطلق على شاشة العرض قبل أن يرى الجميع المزيد، يصوب ناحية ذلك الوغد ليقتله كما قتل أخيه، لتباغته رصاصة لتخترق جوار قلبه ومن ثم رصاصة أخرى لتصيب كتفه، أطلقت من مكان لم يتبين هيئته. حاول أن يطلق رصاصة من مسدسه لتصيب شخصًا لم يعرفه. تعج القاعة بالضجيج ويعم الهرج، ليلقى القبض على المتهم الذي يجب أن ينال جزائه والذي أطلق الرصاصة التي حالت بينه وبين الأخذ بثأره. يضع يده على قلبه لتنثال الدماء بغزارة. يقع أرضًا، ليحمله آدم وحمزة وينطلقوا به مسرعين إلى المشفى قبل أن يفقد حياته، حمزة يخبره أن يتماسك ريثما يصلوا وينفعل على آدم وسيارته ويخبره أن يسرع قليلًا قبل أن يفقد منهما.

بعد أن هدأت الأوضاع قليلًا و وضع المتهم في قفص الالتهام، لينتظر الحكم اللعين الذي سيعلن بحقه، ينظر القاضي له بتقزز:

-ازاي جالك قلب تعمل كدا؟

يقف المحامي ويحاول أن يراوغ مجددًا:

-التسجيل دا مزور أكيد و ....

ليقاطعه القاضي في حزم وقد أتخذ قراره وبلا رجعة به:

- أستاذ ضبع من فضلك مش هتقدر تجيب حجة كويسة خلاص، عندك شهود وعندك تسجيل الكاميرات، أظن أنك هتخسر القضية دي خلاص. الحكم بعد المداولة.

يتبين من أطلق الرصاصة، ومن يكون؟ سوى والد الفتى، أراد فقط الدفاع عن صغيره إلى آخر رمق. ومن ثم يأتي القاضي ليحكم حكمًا نهائيًا بموجب القانون أن المتهم يحكم بالسجن المشدد. وبالنسبة لوالده سيسجن إلى أن يتبين حالة المجني

عليه، ومن ثم سيعلن الحكم والذي سيكون السجن المشدد وألحقه بمشفى السجن نظرًا لحالته الصحية الحالية.

***

في المشفى.

يصرخ آدم في الاستقبال لتأتي ناقلة طبية لتنقل المريض، محاولين إنقاذه بأسرع ما يمكنهم، يتراكض في أرجاء المشفى يبحث عن سيرين، التي يتمتم باسمها ذلك النازف. تهرع إليه راكضة وتحاول أن تطمأنه أنه سيكون بخير.

يهز رأسه نافيًا وبصوت متعب، يضع على كاهلها وصية وعبء لا تتحمله:

- سيرين، خلي بالك من ابني.

تحاول أن تستعيد رباطة جأشها وإلا تخونها دموعها:
-لا تقلق يا أبله سأنقذك لتهتم به.
يردف بصوت متقطع إلى أن يفقد الوعى:
-خلي بالك منه.
تصرخ في الممرضين، ومن ثم تخبره بصوت واثق يشوبه الإجهاش:
-جهزوا غرفة العمليات يا حمقى، لن أترك تموت يا وجه الضفدع، لن أفعل ذلك.
في غرفة العمليات..
تحاول أن تزيل الرصاصة بدقة، الأجواء متوترة حولها، أي حركة ولو قيد أنملة يمكن أن تخسر مريضها وصديقها كذلك، تنظر إلى مؤشراته الحيوية، لتجد أنها تنخفض قليلًا، يستبد

الخوف بقلبها ومن ثم تستمر في انتزاع تلك الرصاصة اللعينة.
بعد مضي ساعة، تخرج من غرفة العمليات وهي تتنفس الصعداء، لتجد آدم ينتظرها هلوعًا محاولًا أن يطمئن على رفيقه، تخبره بنبرة جادة وبلكنة إنجليزية:
- سيكون بخير لا تقلق.

بعد مرور يوم.
كان يومًا مثيرًا ملئ بالعناوين الجدالية والتي تصب الزيت على النار، ولكن لم تكن بحدة العناوين الأولى، فالبراءة ليست مهمة بقدر الالتهام والتدنيس. العجيب في الأمر أن العناوين الرنانة لا تخلو من الالتهام السابق.
" براءة زوجة رجل الأعمال الخائنة"
" الخائنة لم تعد خائنة"
" تورط رجل الأعمال الشاب بقضية اعتداء ومحاولة قتل"
" اقرأ الحادثة رجل أعمال يتم أصابته في منتصف ساحة القضاة"
" رجل أعمال شهير يتم اتهامه في قضية شرف"
" الحكم المشدد لرجل أعمال شاب"
" ساحة القضاة تبرأ الزوجة الخائنة"
"ملبسات جديدة وفاة الزوجة الخائنة قبل النطق بالحكم"
لقد حاولوا أن يظهروا براءتها ويفضحوا الجاني، مثلما فعل بها، ولكن مهما حدث ستظل التهمة لصيقة بها ومهما استجد، ستظل زوجة خائنة حتى لو ثبتت براءتها، لا يهم بالكلّ فالأخبار المشتعلة المضاف إليها التوابل والبهارات هي ما تثير الاهتمام وتشعل الرأي العام و وسائل الأخبار بشكل كلي.

في غرفة يحتلها البياض ورائحة المعقم، يستيقظ رويدًا ليجد أن طبيبته تجلس في ركن قصي، تقرأ كتابًا ومن ثم تغلقه لتذهب إليه وتتحدث في ودٍ تشوبه السخرية:

- أ لم أخبرك أني سأنقذك يا وجه الضفدع؟

يتحدث بصوت متعب ومجهد بلكنة إنجليزية متعبة:

-سيري، ظننت أنها النهاية.

تخبره أن يتوقف عن الدراما، إصابته ليست سيئة:

-توقف عن الدراما يا أبله، كانت إصابة بسيطة، ذلك العجوز الخرف لم يصوب جيدًا بأي حال.

يحاول أن يعدل جلسته ليسألها معاتبًا:

-وهل أردته أن يصوب جيدًا؟

تحاول أن تغيير طرف الحديث لتتحدث بنبرة حانقة بلكنتها الإنجليزية:

- لم أقصد ذلك، حسنًا كف عن الدراما، وليدك بخير، لا أدري كيف تتحمل صداع ذلك الطفل؟

يردف معاتبًا بنبرة محزونة:

-وأنا الذي أردتك أن تعتني به، بالطبع اتحمله، ليس في كل الأوقات ولكني مضطر أن أفعل.

تشكو له من طفله بنبرة حانقة:

- بربك يا رجل أنه ليس طفلًا حتى، لا أدري كيف تتحمله زوجتك ؟

يخبرها بصوت واهن:

- أنه ابنها وتحبه، ولا يهدأ إلا جوارها. لا أعرف ماذا أفعل بدونها؟ أشعر بالضياع والتيه.

تخبره بنبرتها الساخرة وتكرر حديثها الذي حفظه:

- أخبرتك تزوج وأحضر زوجة تربي لك ذلك البيرانا الصغير.
يسعل قليلًا ومن ثم يخبرها أن تكف عن المزاح:
- سيري توقفي عن المزاح أرجوك.
تنهض وتسير ناحية باب غرفته لتغادر ومن ثم تخبره بنبرة تحذيرية ورجاء:
- أوه حسنًا أنا لن أتحمله على كل حال. وداعًا إيها البعبع الأزرق، أسمع لا أظن أن العنقاء ستستجيب، يستحسن أن يتم أطلاق سراحها.
يحاول النهوض، ويخبرها بصوت مرتفع قليلًا:
-سيري، سأحاول لأخر نفس في عمري لأستعيدها.
تتوقف برهة ومن ثم تسأله في شك:
-وداعًا يا أبله. بالمناسبة ماذا ستفعل لو عاد حبك القديم؟
يزم شفتيه ويخبرها بأنه لا يعلم:
- لا أدري.

ويبقى السؤال المحير: ماذا تفعل لو عاد حبك القديم؟
ماذا لو عاد الماضي هل تختاره أم تختار حاضرك؟

الفصل السادس عشر: النهارات الطويلة

بعد ستة أشهر.
ها قد حل آب "أغسطس" وحلت النهارات الطويلة، الحرارة الخانقة، تشعر أنك في محمصة أو فرن ما، الرطوبة ترتفع بشكل كبير ومضني، فقط ليلًا وبالتحديد الرابعة فجرًا تهب نسمات عليلة تلطف الأجواء، السادسة صباحًا ترتفع الرطوبة

ويحدث احتباس حراري يؤدي إلى موجة حارة، حبيبات العرق ورائحته يحفل بها هذا الشهر بكل جدارة.

الساعة العاشرة مساءً

. بعد أن نام صغيره و وضعه في مهده، ذهب إلى الساحة الفسيحة ليزفر بعض الهواء. يقف قليلًا ومن ثم يتأهب للدلوف إلى منزله، ليجد سيدة تأتي مهرولة ناحيته تهتف باسمه بصوتها المبحوح:

- عاصي.

يلتفت ناحية الصوت، ويحاول تهدئتها:

- إيه جابك هنا؟ أنت كويسة طيب؟ أهدي.

تقف مقابله وتحاول أن تكفكف دموعها، تجيب بصوت محشرج:

-أنا أطلقت، لأني مقدرتش أعيش من غيرك.

يبتعد عنها خطوتين ويخبرها معاتبًا:

- أنتِ عارفة آخر مرة اتكلمنا فيها كانت أمتى؟

تشهق وتحاول التماسك لتخرج الكلمات في حالة يرثي لها:

-من أكتر من تلات سنين، عشان بابا خلاني أتجوز غصب عني.

يخبرها بنبرة حادة:

-تلات سنين وشهرين وخمسة أيام.

ومن ثم يردف بنبرة عاجزة:

- أنا حاولت كتير، أتقدمتلك كتير وكنت بترفض من غير أسباب حتى، عاوزاني أعمل إيه تاني؟

تقترب منه وتمسك يده في رجاء، تنظر بعيونها الزمردية في استعطاف:

- عاصي أنت كنت أول راجل في حياتي، أنا أديتك كل حاجة، لأني حبيتك بجد. من فضلك متسبنيش.

ينزع يدها من يده، ويخبرها بنبرة محتدة:

- وأنا عملت كل اللي أقدر أعمله.

تزيل شعرها الأشقر من على وجهها، تقترب منه وتحتضنه وتخبره في ضعف:

-عاصي أنا بحبك. أنا جاية بكل أرادتي ليك وبسلمك نفسي.

يبتعد عنها ويزيحها بيده ليردف بنبرة مقتضبة:

-آسف جدًا مقدرش أعمل كدا.

تضربه على كتفه وتسأله مشدوهة من طريقته الجديدة:

- أي فرق يا عاصي، كل دا مكنش بيهمك زمان.

ينفعل عليها، ومن ثم يهدأ ويعتذر منها:

- بس دلوقت بيهمني، مقدرش أعمل كدا، لو عاوزني أتقدملك وأروح لباباك هعمل كدا، بس مقدرش أختلي بيك زي زمان، أنا آسف.

تسحبه من يده وتخبره في إصرار:

- طيب يلا روح معايا.

يشير لها أن تبقى هنا ريثما يعود:

- أستني هنا، هغير هدومي وجاي.

تنظر له برجاء:

- هروح معاك.

ينظر لها مشدوه:

- تروحي فين؟ لا طبعًا مينفعش خليكِ هنا.

يدلف إلى الداخل، يبدل ثيابه ويرتدي البذلة الزرقاء، يهندم شعره وملابسه في سعادة، ويتسأل هل يمكن أن تكتمل سعادته حقًا أم أن الحياة لا تعطينا ما نريد؟

قبل أن يغادر يخبر المربية أن تهتم بالطفل، ويخبرها أنه ربما لن يعود الليلة. يلتقط مفتاح سيارته، ويخرج ليجدها تجلس مكانها على كرسي الحديقة، يذهب إليها ليأخذ بيدها ويخبرها أن تجلس في السيارة. يقود وهو يتذكر ما حدث قبل ثلاث سنوات وخمسة أشهر.

باريس، فرنسا مدينة الحب وفراشات الليل. الطرقات الباردة، رجل عجوز يعزف مقطوعة رومانسية، يتسول الإحسان بمقطوعة رديئة عن الحب والترهات، أين الحب في باريس؟ حبهم للرغبة ليس غير.

يجلس على أريكة في "أتليه" لملابس الزفاف، ينتظر إحداهن ريثما تختار ما يناسبها، وتريه اختيارها. تدلف تلك الفراشة مرتدية فستان أبيض به بعض الكشكشة من الدانتيل المطرز باللؤلؤ الأبيض. لتدور بالفستان في سعادة غامرة وتتحدث بلكنة فرنسية:

- ما رأيك؟ هل أبدو جميلة؟

يضع يده على قلبه ومن ثم يتحدث بحب بالغ بذات اللكنة الفرنسية:

- بل تبدين مذهلة.

تزم شفتيها وتقطب حاجبيها في استهجان:

- أوه، أنت تبالغ، أنا فقط أبدو عادية.

يقترب منها ويقبل وجنتيها قائلًا بحب كبير:

-لا أستطيع أن أراكِ عادية، كيف للنبض أن يكون عاديًا.

تزيل خصلاتها الشقراء خجلة وتخبره عن رأيه النهائي:

- ما رأيك سأرتدي هذا في زفافنا، هل يعجبك؟

يقترب إليها ليضمها إلى ضلوعه:

- أي حاجة عليكِ هتكون مفيش منها أتنين.

ترفع نظرها إليها وتخبره بحبها وبلغة معربة قد تكون ثقيلة:
-أنا بحبك، متسبنيش أبدًا.
يقاطع ذاكرته وصلهم إلى منزلها، يطفئ محرك السيارة ليترجل منها، يذهب ليفتح لها الباب لتهبط منه تلك الحسناء الفرنسية، تسير بجواره ليدلفا إلى القصر الفسيح، أسواره العالية تهبه الهيبة في ظلال الليل، الإضاءة تحتل أرجاء القصر، في غرفة فسيحة ذات ستائر زمردية اللون، سجادة من فرو حيوان الدب القطبي تنصف الغرفة، نوافذ عريضة من الزجاج الشفاف كأنها مرايا، كراسي مرصوفة بعناية ذات قماش مخملي، التحف الفنية المطعمة بالذهب، الثريا الكريستالية المذهبة.
يقف أمام والدها، تنزوي خلفه تحتمي به، وتطلب الأمان والأمن.
يخبره راجيًا:
- أنا طالب أيد بنتك يا عمي.

يضع ساق فوق الأخرى في كبر:

-يا بني أنا قولتلك طلبك مرفوض ولو كنت آخر واحد في الدنيا مش هجوزك بنتي.

يخبره بنبرة يتضح انكسارها:

- عاوز أعرف أسباب طيب.

يحدجه بعينيه ويتحدث بنبرة غليظة:

-من غير أسباب، أنت شخص مش مناسب.

ينظر لها بعجز ويخبرها بنبرة معاتبة:

- أهو سمعتي كلام والدك، أعمل إيه تاني؟

تجثو تحت أقدام والدها وتذرف الدموع حارة أمامه لعلها تستعطف قلبه:

-بابا حرام عليك ليه بتعمل كدا؟

يكفكف دموعها ويتناول وجهها بيده ليتحدث بنبرة حنونة:

- باكي يا حبيبتي، عاصي معندوش عيلة، جدو مش راضي عنه وطرده بعيد بعد ما دمر شغلهم كله، اللي زي دا ملوش أمان. دا واحد متسول ومجرم.

لتنفجر صارخة في وجهه بعدما ودعت أن يحدث ما تريد:

-يا بابا حرام عليك، أنت واخدني مجرد سلعة للي يدفع أكتر الموضوع ملهوش علاقة بعاصي، ليه علاقة بغرورك وبس.

يلطمها على وجهها، لتخر أرضًا وتفقد قواها، ويخبرها أن تغرب عن وجهه:

- أخرسي يا بنت، واضح أنه لحس دماغك للدرجادي. هتطلعي أوضتك وموضوع عاصي دا تنسيه خالص.

يأخذ بيدها لتنهض، يخبرها آسفًا:

- أنا آسف يا باكي.

تتشبث بيده وتخبره بعيون مرهقة ومنتفخة:

- أنا بحبك يا عاصي، أنا أسفة، حتى أنك رافض نكون مع بعض.

يفلت يده منها، ويخبرها معتذرًا:

- مقدرش يا باكي، يمكن لو زمان أنما دلوقت مقدرش.

ليقف والدها مشيرًا للحراس الخاص به:

- أتفضل برا من غير مطرود. ولا تحب الحراس يرموك برا.

يقف لبرهة ومن ثم يخبره بنبرة محذرة:

- لا مفيش داعي، هتندم على كل كلمة.

يسير بخطوات مبتعدة ومثقلة، مهما فعل سيظل النصيب هو من يحكم، لا تحاول عندما يرفضك النصيب فقط غادر، فأنت غير مرحب بك.

يعود إلى منزله، يرمي سترته، يجلس على الأريكة. ومن ثم يتذكر تهديد والدها له، وأنه سيقوم بقتله أن اقترب من فتاته مجددًا، فكيف أن يأخذ الدجاجة التي تبيض ذهبًا شحاذًا، أعني السلعة الغالية بالتأكيد تباع بثمن ثمين، في التجارة يمكنك المراهنة بكل شيء حرفيًا وأيما يكن في سبيل الفوز، وبناء الثروة وعقد الصداقات مع الأثرياء. فالنهاية من يدفع أكثر يأخذ البضائع النادرة. يزفر قليلًا ويتذكر زوجته التي في المشفى وحالتها الصحية، وكيف أنه يخونها بقلبه ويعشق سيدة أخرى أو لا يعلم ربما لا يعشق سوى زوجته ربما من يدري؟ يتذكر أنه يبقي عليها فقط لأجل طفليهما.

* **

في ذات التوقيت في مكان آخر.

تجلس في غرفتها تحاول أن تنجز بعض الأوراق المهمة الخاصة بعملها، فلقد تقدمت لشغل وظيفة إدارية في إحدى شركات الإنشاء الصغيرة نسبيًا، بالرغم من عدم حاجتها للعمل إلا أنها قررت أن تخرج من قوقعتها التي حبسها بها زوجها أو طليقها، فكيف لها أن تعمل وهي زوجة رجل أعمال بالطبع هناك مهانة له. وبينما تقلب الأوراق يمنة ويسرة، يطرق الباب،

لتخبره من الداخل أن يتفضل بالدخول، فتجد والدها حاملًا فنجانيَّ قهوة ويخبرها بنبرة حنونة:
- جيان يا بنتي.
تترك ما بيدها وتنظر إليه في مودة:
- نعم يا بابا. أتفضل.
والدها في نبرة متململة:
- في حد متقدملك.
تنظر إليه بعيون تتكدر بها الدموع وتتحدث بصوت رتيب:
-تاني يا بابا، أنا زهقت، أنتوا عاوزين تخلصوا مني؟ ماما كل شوية من ساعة ما أتطلقت وهي كل شوية تسم بدني، وكل شوية تجبلي حد عشان أشوفه، مرة مطلق، مرة أرمل، مرة عازب ودا طبعًا عشان المطلقة مش هتتشرط ومش لازم ليها مهر، كفاية أنها لاقيت حد يرضى بيها مش كدا.
يأخذها في حضنه ويربت عليها:
- يا بنتي هو الجواز لا قدر الله غلط ولا حرام يعني؟ ومش معني أنك فشلتي في تجربة يبقي خلاص على كدا الحياة انتهت، لا يا بنتي الحياة منتهتش لسه قدامك العمر طويل والتجارب كتير.
تنفجر باكية وتنفلت رباطة جأشها:
- مش عاوزة أتجوز تاني يا بابا، خلاص أنا بشتغل وأنتَ ربنا يبارك في عمرك موجود جانبي، فمن فضلك، أنا مش حابة الموضوع دا، خلاص كفاية تجربة واحدة ومش حابة أكررها.
يكفكف دموعها بيده الحانية ويخبرها شاكيًا، محاولًا أن يخرجها من نوبة البكاء:
+ تصوري أمك عاوزة تجوزك ابن طنط توحيدة، عاجبك عمايلها دي؟

تتحدث بصوت محشرج:
- بس دا عنده.... أصغر مني بست سنين يا بابا، هي ماما كويسة؟ مش كفاية كانت عاوزة تجوزني لابن فتيكات هانم، ودا اللهم أعفينا يا رب، بيغني وبيعمل حفلات وسهرات، وفوق دا كله مطلق خمسة عشر مرة؟
والدها متعجبًا:
- إيه ابن فتيكات لا دا على جثتي، قال فتيكات قال، دا عيل دلدول، لا يمكن أبدًا يا حبيبة بابا.
ومن ثم يردف بنبرة حنونة:
-يا بنتي أنا سالت على اللي متقدملك وهو كويس وفوق دا كله دا زميلك في الشغل.
تهز رأسيها بنفي وتخبره بنبرة بحت من البكاء:
-معرفش حد فيهم ومليش علاقة بيهم.
يحاول أن يستميل قلبها، وبحنان بالغ:
-أقعدي معاه طيب ولو مرتحتيش ارفضي.
تهز رأسها بإيجاب وتخبره بانصياع:
- حاضر يا بابا هعمل كدا.
يدعو لها بالخير ويتركها لتنجز ما تريد إنجازه:
- ربنا يكتبلك الخير يا بنتي. هسيبك تخلصي شغلك.
الحنان لا يشترى وخصوصًا أن كان من العائلة والجزع الذي نستند عليه. وفي المقابل بعض الصدمات تجعلنا بهشاشة الخزف. علاقة فاشلة واحدة ربما تجعلك تعاني للأبد.

الفصل السابع عشر: ربما ترنو لنا الحياة

بعد مرور يوم..

بعد يوم عمل مرهق، تدلف إلى منزلها وتحاول أن تستعيد قوتها، تجر أقدامها إلى غرفتها، ترتمي فوق فراشها مجهدة، لتدلف والدتها وتخبرها أن تستعد فأحدهم قادم لرؤيتها لعل الله يهديها وتوافق عليه. تحاول أن تنهض بتثاقل وتهز رأسها

بإيجاب ومن ثم تغفو دون أن تدري. لتستيقظ في الأصيل المعتدل قليلًا ومن ثم ترتدي ردائها الأسود وحجابها، لتنتظر أن يأتي الذي سيرفض فورًا بعد كلمتين كما جرت العادة. بعد مرور بعض الوقت، يطرق باب منزلهم ليستقبل والدها ذلك الضيف ومن ثم يصدح صوته مناديًا عليها أن تأتي فورًا. تدلف إليهم في استحياء ومن ثم تجلس بعيدًا، ليرحل والدها ويتركهما بمفردهما. لتتحدث مشدوهة فها هو أمامها بشعره البني وعيونه الغامقة وملامحه العادية ولكنها مميزة، وجهه البشوش وسحنته الطيبة:

- أستاذ مراد أنتَ؟

يخبرها هادئًا:

-أيوه أنا.

تنكس رأسها خجلًا ومن ثم تتحدث بنبرة هادئة:

- اتفضل أسال أي سؤال؟

يهز كتفيه ويخبرها متحيرًا:

-مش عارف أسال أنتِ حابة تقولي حاجة؟

تتململ في الحديث وتتلعثم ومن ثم تصمت برهة :

- أستاذ مراد كنت عاوزة أقولك أني كنت متجوزة قبل كدا، وكمان ....

يشير بيده أن تهدأ وتتنفس الصعداء:

- أتفضلي.

تفرك كف بكف في توتر:

-هو الدكاترة قالوا أني ممكن ما أخلفش وأظن أني بقولك من البداية عشان ممكذبش. عليك.

يخبرها جادًا بنبرة هادئة:

- قصدك بتسربيني بس بالذوق.

تنفي مقصده وتخبره بنبرة متوترة:
- والله أبدًا بقولك الحقيقة بس.
يتنفس الصعداء ومن ثم يتحدث:
-طيب أنا هسألك المرة دي.
تخبره بانصياع:
-اتفضل.
يسأل وهو يعلم جوابها فالكل يعلم وخصوصًا زملاء عملها:
-حافظة كام جزء من القرآن.
تتحدث بقلق وتوتر:
- الحمدلله بحاول أختمه حفظ هو باقي عشر أجزاء بس.
يسأل مجددًا بنبرة عادية:
-بتصلي القيام.

تهز رأسها بإيجاب ومن ثم تسأل عن سبب أسئلته:

-الحمد لله، بس ليه بتسأل؟

يخبرها بعد أن تفحص ساعته ويحاول أن يبعث في قلبها الطمأنينة:
-لأني كنت شايف تعاملاتك معنا في الشغل كانت كلها بحدود، ودايما واخدة جنب، ومالكيش دعوة بحد، وكمان من لما اشتغلت محدش سمع عنك حاجة وحشة، وأعتقد دا شيء كافي يخليني أختارك. جيان أنت كنت متزوجة يعني جربة ولا ناقصة رجل ولا دراع يعني عادي.
تسأله في نبرة خجلة:
- طب وحضرتك؟
يحاول أن يخفف من توترها فيتحدث ممازحًا:
- كنت متجوز يا جيان يبقي أنا كدا جربة.

تنفلت ضحكة دون إرادة منها ومن ثم تعتذر لتسأل مستفسرة عن سبب الانفصال:
- آسفة، وإيه سبب الانفصال، لو مش هيضايقك يعني؟
يتحدث بصوت جاد خلى من الممازحة:
-لا مش هيضايقني ولا حاجة، مقدرتش تستحمل تعيش معايا، مقدرتش تستحمل نظامي، وعشان كدا محصلش نصيب. وأنت أنا سمعت أنك كنت متجوزة من رجل أعمال، إيه حصل بقا؟
تتوتر وترتعش فرائصها ومن ثم تستعيد رباطة جأشها لتتحدث بتخبط:
- محصلش نصيب بينا، والحمدلله كل واحد راح لحاله.
يتحدث بنبرة هادئة ليجعلها تطمئن ولو قليلًا:
- جيان بصي لو شوفتي مني حاجة وحشة في الشغل قوليلي.
تحاول أن ترفضه برقي وبدون أن تجرحه:
-أستاذ مراد، والله شوفت منك كل خير بس حضرتك، تستأهل أحسن.
يخبرها جادًا:
-لو مهما دورت مش هلاقي أحسن منك.
تحاول أن تثنيه عن رأيه:
-بس طيب ممكن....
ليقاطعها متحادثًا بجدية:
- بصي اللي في دماغك مش مهم يا جيان، من أمتى العيال والخلفة بيعملوا عيلة. مش هضغط عليك، بس أنا شاري.
يضعها في موقف لا تحسد عليه، لتخبره بنبرة متوترة:
- أستاذ مراد، هصلي أستخارة وأرد عليك بإذن الله.
يخبرها بنبرة تبث الأمان في القلب:
- هستني ردك، و واثق أني المرادي أخترت صح.

تتركه وتهرع إلى الداخل، ليدلف والدها ويتحدث معه قليلًا ومن ثم يغادر بعد أن تناول ضيافته.

* **

في غرفة من إحدى غرف المشفى في ذات التوقيت. يحتلها البياض، أجهزة تحيط بمريض ممدد لا حول له ولا قوة، لا يحتاج فقط سوى نزع الأجهزة من حوله ليغادر وينتهي الأمر، يدلف الطبيب المختص ويخبر الجالس بجوار المريض في كمد أنه لا فائدة مما يفعل لا أمل من استيقاظ المريض، لقد فعلنا ما في وسعنا وللأسف لا طال من محاولاتنا المستمرة، يمرر له ملف ليوقع على نزع الأجهزة والاستسلام للواقع. يخبر الطبيب أنه لن يوقع على أي شيء وسيبقى الحال كما هو عليه، ينصرف الطبيب وطاقم التمريض ويتركون ذلك المختل الذي يرفض الواقع ويحتاج إلى معجزة.

يجلس بمفرده ممسكًا بيديّ المريض ليتحدث بصوت منفعل وغاضب، لقد مل ماذا يفعل؟:

-نارين أرجوكِ فوقي، إيه اللعنة اللي صابتك، أنا باجي كل يوم وأقولك سامحتك وابنك محتاجك، أنتِ أنانية يا نارين أنانية، أنا قبلتك من البداية مش هقابلك وأنتِ مظلومة إزاي. كفاية عناد أنا تعبت. الولاد محتاجينك ودايمًا يسألوا عليكِ، فاكرين أنك هنا بسببي، أنا طاقتي خلصت، كل حاجة عليا، أنا مش أيوب عشان أصبر وأستحمل كل دا.

ومن ثم يترك يدها وينهض منفعلًا ليكم جدار الغرفة:

-أنتِ سامعني وبتعندي صح، ليه بتعملي فيا كدا؟

صوت خطوات يأتي من خلفه ليربت على كتفه ويتحدث بلكنة إنجليزية:

- عاصي أهدأ. ماذا تفعل يا أحمق؟

يدمدم صارخًا ومقهورًا:
-أهدي إزاي وهي بتعند، أنا قولت مش هسامحها بس أنا والله سامحتها يا سيري. بقولها هنبدأ صفحة جديدة وهي حتى مش بتستجيب. بتعند وخلاص.
ومن ثم تخور قواه ويجلس على المقعد المقابل لها متحدثًا بصوت مجهد ومحزون:
-أنا زهقت وتعبت يا سيري، الولد من ساعة اللي حصل ومش بيبطل بكاء ولا يسكت إلا لما يشوفها، أعمل إيه في أنانيتها وهي حتى رافضة تقوم عشان ابنها. أنا مش مهم في ستين داهية، بس ابنها متعلق بيها، جبتله مربيات كتير وهو مش متاقلم مع أي واحدة حتى. فاهمة يعني إيه؟ حتى الولد بيصعبها عليا، أنا والله تعبت ومبقتش قادر ولا عارف هتستحمل لحد امته. والولاد في الملجأ كمان مش بيبطلوا زن ولا بكاء عاوزينها هي كمان. هي ليه بتعلق الناس بيها وبعدين تعند ومش راضية تفوق، في ألف طفل متعلقين بيها وهي كل دا مش همها يعني.
تهز كتفيه وبصوت متحير تجيب:
- لا أعرف لما لا تستجيب.
يخبرها بنبرة مغمومة يحتلها الانفعال:
-أنا عارف ليه، خايفة أعاتبها، خايفة من رد فعلي، بس أنا والله مش هكلمها، مش هقولها حاجة والله. أنا سامحتها أساسًا. مش عارف ليه طبعها الاناني والعنيد دا ليه، إي حصل لدا كله يعني، إيه فرق المرة دي عن كل المرات اللي فاتت، هي عاوزة تقهرني عليها وخلاص، مجرد أنانية وخلاص.
تشير بيدها أن يتنفس الصعداء ويهدأ قليلًا:
-أهدأ، أخبرك أنا ما الفرق؟

ينظر لها مشدوه:
- إيه الفرق العظيم اللي هخلاها مش عاوزة تفوق وبتعند معايا؟
تخبره بنبرة متململة:
-لأنها أحبتك، هكذا بكل بساطة، فهي خائفة وترفض الاستجابة لهذا السبب، ربما سمعت ... أقصد ذلك... أعني... الدليل... أنها لن تستطيع النظر في عينيك مجددًا. أظن أنها خائفة وحسب.
ينظر لها نظرة حانقة ومن ثم يتحدث قائلًا :
-سيرين كفاية عبط خايفة إزاي يعني، ما أنا بقولها أني زفت سامحتها أعمل إيه تاني يعني.
تتحدث بنبرة صارمة يشوبها الانفعال:
-فقط حررها ولا تتعب نفسك أكثر من ذلك. لا أمل من استرجاعها، أنسى الأمر. أنت أيضًا عنيد.
ومن ثم تردف ضاربة إياه على جبينه بحركة لا إرادية منها:
-ماذا تريد أن تستيقظ. وتحتضنك وبالأساس حالتها خطرة وكسورها لم تلتئم بعد، أن تخبرك أن تبدأ من جديد وكل هذا الهراء فلتفق يا أحمق وتوقف عن الدراما التي تفتعلها، تلومها على عنادها وتنسي ذاتك، يا لكم من حمقى أنت وزوجتك.
الحياة تستمر بالنهاية ولكن ماذا أفعل وقعت مع مجموعة من المختلين عقليًا.
ومن ثم تخرج عن طورها:
- ها أخبرني ماذا تريدها أن تفعل، لقد سئمنا يا أحمق، هل تعلم كم الضغط الذي يصيبنا فقط للحفاظ على حياة زوجتك؟
تضم يدها متوسلة في انفعال:

- أنزع عنها الأجهزة اللعينة وارحمنا حبًا بالله لقد طفح كيلنا، وتزوج أيما مخلوق، هي بالأساس لا تحبك فقط دعها وشأنها. لماذا تفعل كل ذلك؟

يقف ليصرخ منفعلًا من استفزازها له:

- من أجل ابني، لا أريد له أن يعاني مثلما عانينا سيري، انظري إليك إلى أي شخص تحولت بعد هجران أبيك، هل ترين ذاتك في المرآة؟ وانظري إلي بعد وفاة والداي وتربية جدي ليّ، هل ترين شخصًا جيدًا أمامك؟

يحتل الصمت برهة ليخبرها بأسي:

-وحدك تعلمين كيف كنا نعامل في منزل جدنا؟ تعرضنا للضرب والبرد والتعذيب أحيانًا، كنا نتناول الطعام من القمامة فقط أنا وأخي، لأننا أبناء الفرنسية العاهرة في نظرهم التي احتالت على المسكين وقامت بالزواج منه وإنجابنا نحن القذارة.

ومن ثم تتبدل نبرته ليردف مقهورًا غاضبًا:

-ما الذي لا تعلمينه أنت تعلمين أكثر من ذلك، فلتخبريني والآن؟ لا أريد أن يعاني طفلي مما عانيت منه.

يبقي وجهها جامدًا لتردف بنبرة مقتضبة، تغير بها مجرى الحديث:

-ولكن ماذا نفعل يا رفيق؟ أخبرني إذا هل عادت سيدة الرحيل؟

ليجيب بنبرة عادية:

- لقد عادت باكي، سيري.

تحاول أن تظهر اهتمامًا مزيف بنبرة ساخرة:

- أوه هذا مشوق، حسنًا تزوجها ودعها لتربي لك ذلك البيرانا.

يخبرها أن تتوقف عن المزاح بملامح واجمة:

-توقفي عن المزاح، لقد رفضت مجددًا لا أدري للمرة الكم؟ أنزعي من رأسك هذه الفكرة.
تنظر بشك وبنبرة مقتضبة:
-أظن، أنت تحبها يا رجل صحيح؟
يطأطأ الرأس ومن ثم يخبرها بنبرة محزونة:
- سأكذب إن قولت لا، ولكن ماذا أفعل سيري؟ ليست من نصيبي، حاولت كثيرًا ولم أفلح.
تربت على كتفه وتخبره مواسية:
-لا بأس يا صديقي، لا أحد في هذه الدنيا يأخذ مراده.
ومن ثم تتذكر حديثه عن زوجته لتنفعل من كم نفاقه وتناقضه، لتردف بنبرة حادة:
-ما زلت تحب تلك الساقطة بعد كل فعلته بك.

ينفعل ويخبرها محذرًا:
- سيرين ألزمي حدودك لحد هنا وكفاية.

تنفض يديها وتردف في سخرية ونبرة مستفزة:
- لقد كانت تتركك كل حين ومن تأتي باكية وتخبرك آسفة أبي سيجعلني أتزوج، إلى اللقاء، هل هي قاصرة لتجبر على شيء؟ وأنت الأبله الذي سيصدق أليس كذلك؟ هناك ما ينغص أفكار بناتي كيف لوالدها أن يتركها تعيش معك ومثلكما مثل المتزوجين ولكن لا يمكن أن تتزوجها وتصير علاقتكما شرعية، أي أب ديوث هو. حسنًا دعك من ذلك انظر معي كم عدد المرات التي تزوجت بها؟ حسنًا دعك من ذلك أيضًا، كم عدد علاقتها التي قبلك وبعدك؟ أسمع يا رفيقي هي لا تعرف

الحب، فقط تحكمها الشهوة والرغبة، أنها مجرد فراشة ليل فرنسية وأنت مجرد أحمق كبير ومغفل فقط.

ليخبرها أن تتوقف ويخرج عن طوره:

-توقفي وماذا عنك؟ ولماذا غاضبة جدًا هكذا وما شأنك بي؟ أنت أيضًا عاهرة.

ومن ثم يردف ساخطًا:

-باكي ليست عاهرة، هي فقط يحكمها الخوف، تخاف أن تقرر مصيرها، وأنتِ ماذا عنك؟ لا ترين شخصًا جيدًا كآدم وفي ذات الوقت تحقدين عليه، ماذا تريدين؟ آدم جيد، ولكنه لا يسامح وتلك هي الصفة السيئة وحسب. حسنًا ماذا أفعل إن لم يسامحك على ذنب لم تقترفيه؟ لم يستطع ليس خوفًا ولا جبنًا هو فقط يعرفك، كنتِ ستحولين حياته جحيمًا وهو لن يتحمل، إن رأيت الشفقة في عينه ستقتلين نفسك وهو لن يتحمل خسارتك، حافظ عليك بالطريقة التي وجدها مناسبة. وأنا أيضًا أتعامل بالطريقة التي أراها صحيحة، فلا تتدخلي في شئوني. وأبقِ فمك مغلقًا.

تحاول ازدراد ريقها من هول ما تفوه به للتو وتتحدث بجدية:

- حسنًا، لا شأن لي بك سوى أنك وغد ومغفل كبير، هذا لا يهم، ولكن هل مارست العهر عليك من قبل؟ فلتحمد الله أنك صديق طفولتي وإلا ما كنت انتظرت لحظة واحدة لقتلك. كل ما أرادته أن تتزوج امرأة صالحة وحسب، تزوج أي واحدة ما عدا تلك الفرنسية وألا سأقتلك يوم زفافك منها، ولا تقلق سأهتم بصغيرك جيدًا، على الأقل سيتربى جيدًا.

يحاول أن يلملم ما حطمه للتو ويخبرها معتذرًا:

-سيري أعتذر أقسم بالله لم أقصد، أنت صديقتي العزيزة، فقط غضبت، أطلبي ما تريدين فقط سامحيني. أنا فقط....

لتقاطعه وتتحدث بنبرة جامدة يشوبها السخرية:

- أوه يا فتى أنت مشتت، لا تدري أين مرساة قلبك، أخبرك أنت لا تحب تلك الساقطة، أنت فقط تعطف عليها، تخاف أن تجرح مشاعرها، بالتغيير الذي طرأ عليك، لا أظن أنك تحب أحدًا مثلما تحب زوجتك. على كل حال، لا بأس أفعل ما تجده صوابًا. لن ترى وجهي مجددًا ولا أريد رؤية وجهك القبيح كذلك، وداعًا يا وجه الضفدع.

يبتسم وينير ثغره ليخبرها بنبرة ساخرة:

- بالتأكيد وجهي قبيح فلا ترين وجه جميل سوى وجه الحسناء الحبيسة أليس كذلك؟

تهندم سترتها وتغادر بخطوات ثابتة ومن ثم تقف برهة وتستدير:

-ضع في حسابي عشرين ألف دولار إذًا؟ وهذا ثمن إهانتك لي، وربما قد أغفر لك. أما الآن فلتغرب عن وجهي. ولا تنسى أنتَ رجل شرقي ولست أجنبيًا. عد إلى جذورك يا فتى.

ليتحدث ممازحًا:

- أنا متشرد كأقرب وصف.

تحت غمام السماء في إحدى المقابر. سيدة ترتدي قبعة سوداء، ثوب أسود حريري، تقف أمام شاهد قبر أحدهم، لوحة رخامية محفور عليها " هنا يرقد المرحوم أمجد عمران، المتوفي عن عمر يناهز ستة وثلاثون عامًا"، تسقي الصبار بجوار القبر لتنوح باكية وتمسح

دموعها بمنديلها القاتم، جفونها المترهلة، تجعيدها البشعة تزداد بشاعة كلما انثالت من عينيها بعض الدموع:

- سامحني يا أمجد يا بني، حاولت أبعده عن سكة أبوه ومعرفتش يا ابني، والله حاولت يا ابني وفشلت.

أنا أسفة يا حبيبي، كانت بتحاول تبعده عنه بس مقدرتش تبعده كفاية.

ربنا يرحمك يا حتة من قلبي، كان نفسي أشوفك عريس، كنت مهمش يا حبيبي، مكنتش واخد حقك، سامحني، سامحني يا بني.

تقبل اللوحة وتمسح عليه بيدها:

- عريس في الجنة يا حبيبي، ربنا يرحمك يا حبيبي.

كلمة واحدة فقط تفسد علاقة دامت دهر، غريبة أليس كذلك. كيف يكون للكلمات ذلك الأثر الرهيب؟ أعني كلمة واحدة تجعلنا نطير إلى آفاق السماء وكلمة أخرى تخسف بنا إلى أسفل السافلين. بعض الكلمات تخلق أجنحة والبعض الآخر يخلق غصة تتكور في الحلق. أعتقد أن الكلمات يمكن أن تقتل كذلك، ما رأيك أنت يا عزيزي؟

الفصل الثامن عشر: رائحة الجوافة

سبتمبر "أيلول" رائحة الجوافة تنتشر في أرجاء المكان، أوه الرائحة تبعث في النفس الراحة، للجوافة طعم مميز على الأقل بالنسبة لمن يحبها. سبتمبر يعني العودة لاستقبال الدراسة والمعاناة التي ستعانيها الأمهات والآباء على حدًا سواء، ترى كم المصروفات التي ستدفع والنقود التي ستذهب في مهب الريح على طلبات الصغار الذين لا يكفون عن الطلب دومًا ودائمًا.

في إحدى السجون ذلك الفراغ الموحش، لون الحائط الخرساني، الأصوات المتهامسة، أزيز الأبواب يصدر صوتًا مزعجًا، كما أن الأبواب فيما يبدو تحتاج بعض الشحم لتتوقف عن ذلك الأزيز المزعج. ساحة لاستقبال زيارات المساجين، بعض الكراسي الخشبية المتراصة، بعضها أكلت العثة والبعض ما زال صالحًا، الحراس يقفون بجوار كل عمود من أعمدة السجن، يرقبون كل التحركات والهمزات واللمزات، يجلس السجناء يرتدون الأزرق الجميل، ليس جميلًا هل صدقت؟ ذلك الرداء قبيح جدًا، ولكن ليس هذا مربط الفرس.

سيدة تجلس متلحفة بالسواد، يعنفها زوجها ويردف بنبرة معاتبة:

- أزاي تشهدي ضد ابنك اللي من لحمك ودمك؟

تبكي وتنوح وتجيب مبررة:

- كان هيخلص عليه يا عبد الجبار.

ليردف وليدها بنبرة مغرورة واثقة:

-ميقدرش يعمل كدا.

بنبرة محشرجة تحاول التبرير:

-أنت مشوفتش عيونه يا ابني، كان مستعد يقتل. في اللحظة دي.

يحرك شفتيه ساخرًا ويخبرها بصوته الخشن:

-كان يورينا شطارته وأنا همحيه من على وش الأرض.

تلطم على وجهها من غلبها وقهرتها :

-كفاية بقا حرام عليك، كفاية ظلم وافتراء، ابنك قتل أخوه وخليتني اسكت، وشهادتي مكنتش هتدينه بس ابنك اتفضح صوت وصورة قدام الناس. وأنت حاولت تقتله، وفضحتوا مراته في الجرايد والدنيا كلها. أنتوا عاوزين منه إيه؟ حرام عليكم.

ليخبرها صغيرها بلا مبالاة:

- أنا راجل ميهمنيش، هتفضل دايمًا مراته هي الغلطانة. وحكاية قتل أخوه اتنست من زمان، ما هو مش معقولة حد يقولي على حاجة لا.

تشدوه من رد فعل وليدها وتخبره معاتبة:

-مش حاسس بالندم أزاي؟ دا اللي ربيتك عليه.

يجيب منفعلًا وقد فرغ مكنون قلبه:

- أنت مربتنيش، فين وقتك ليا، كل شوية أمجد عمل، أمجد أحسن منك، أمجد متفوق أكتر، أمجد، أمجد، أنا زهقت.

تضع يدها على صدرها متحسرة وتسأل متحيرة:

- يااه كل دا شايله في قلبك ناحية أخوك؟

يحاول تدارك الموقف ويحاول التراجع عن حديثه ولكنه لا يستطيع:

-وأكتر من كدا، أنا بحبه وبحترمه، بس مش قادر أنسى اللي كنت بتقوليه عنه.

تضرب كف بكف بحسرة:

-لا حول ولا قوة إلا الله، يا بني، أحنا بنحبك.
ليتحدث معاتبًا بنبرة خبيثة محاولًا الحديث لصالحه:
- وأنا مبحبكيش. أزاي تسلمي أبنك قدام الناس؟
تنهار باكية وتتجعد ملامحها أكثر:
-مكنتش هقدر أشوفه بيخلص عليك يا بني.
ليتدخل زوجها في الحديث وبنبرة حادة مخيفة:
- اسمعي يا وش النحس أنتِ، هتروحي للمحامي وتخليه يقدم طعن في المحكمة العليا، فهمتي ولا؟
لتنفعل غاضبة لقد طفح كيلها:
-لا مش هعمل كدا.
يزم شفتيه ويخبرها مستهزئًا:
- القطة طلع ليها ضوافر وبتخربش.
تتحدث في قهر:
- أنا تعبت من ظلمك، حرام عليكم.
ليحدجها بعينيه ومن ثم يتحدث بنبرة مهددة:
-اسمعي يا هالة، هتروحي للمحامي وهتعملي كل اللي بقولك عليه، بدون نقاش. فاهمة ولا مش فاهمة؟
تهز رأسها في خوف من نظرته تلك:
- حاضر.
ترتجف أوصالها وتغادر وقد حكم عليها بالسجن المؤبد مع هذا الرجل الذي يدعى زوجها، ليس سجنًا فعليًا ولكنه سجن الخوف والعجز، الخوف الذي يجعل الحياة سجن كبير ولكن لا مكان يحكمه.
... في مشغل السجن لصناعة الأثاث، يجلس أحدهم متذمرًا لا يفعل شيئًا سوى كنس نشارة الخشب بلا مبالاة وضجر، وجهه البريء ما زال بريئًا ولكن أضحى أكثر شرًا ربما. يقولون

السجن للإصلاح ولكن لا أجد إصلاحًا ها هنا، فالسجن يا عزيزي يصنع من القطة، أسد ذو أنياب تمزقك أربًا أربًا.
يقترب منه أحد المساجين ليسأله ما تهمته، وبالطبع كل السجن يعلم ما تهمته، فالسجن غرفة واحدة تتناقل الأحاديث بداخلها بسرعة البرق :
-هو أنت قولتي جاي في إيه؟
يترك المقشة من يده ويخبره ضاحكًا:
-أنا مظلوم.
ينظر له بازدراء ويقلب كف بكف:
-لا حول ولا قوة إلا بالله، إيه دا، إيه الجحود اللي عندك دا؟ اعفينا يا رب.
يتوقف عن الضحك ويعقد حاجبيه مستغربًا:
-وأنت بقا جاي مظلوم يعني؟
يحرك فكيه بيده ليتحدث بنبرة هادئة:
- لا قتلت.
تحدث ساخرًا منه:
- ودي تفرق يعني؟

يخبره بنبرة جادة:

- طبعًا تفرق، كله إلا العرض والنسوان، أنا لما قتلت قتلت عشان خدت بتاري، أنما أنت جيت على الجناح الضعيف وجيت على حد أضعف منك واتشطرت عليه.

يتحدث مستهزئًا:
-غريب أمرك ما هي نفس الحاجة ونفس الذنب.
يهز رأسه بنفي ومن ثم يردف مبررًا من وجهة نظره:

-لا يا ولدي مش نفسها، لما تخلي حد يحس بالذل والمهانة ويكره نفسه مش نفسها لا، أنما القتل لأسباب دا مختلف، أنت بتخلص عليه مش بتديله فرصة يشوف نفسه متهان.

يبتسم دون مبالي بما يقول:

- بتحاول تبرر لنفسك جريمتك وخلاص.

ليتحدث المسجون بنبرة مهددة ونية خبيثة:

-وأنت محاولتش تصلح من نفسك ولا تبرر لنفسك، جواك جحود وقلبك فيه سواد.

يحاول أن يبدئ خوفه قليلًا ويتململ لسانه:

- أنت مين؟ وعاوز إيه؟

يقترب منه وكاد أن يخنقه، بالتأكيد فهذا المسجون بعث خصيصًا ليخلصه من حياته بأمر من أحد الأشخاص:

- أنا اللي هخلصك من الدنيا كلها.

ينفلت من بين يديه ليهرع راكضًا، يمثل الخوف جيدًا:

-أفتحوا باب السجن دا في مجنون هنا معايا.

يقترب منه الحراس ويخبروه بصوت واحد:

- مفيش حد معاك بيتهيالك ولا يكونش مرزوق اللي مات من سنتين طلعلك.

يخبرهم بعيون خائفة وبريئة:

- راجل كان متهم بالقتل.

يضحك الحراس ويستهزؤون به:

- متخافش مش هيأذيك هو كدا مع المساجين الجدد بس، هتتعود عليه.

يسير الحراس ويتهامسون مع بعضهم:

- نقوله أنه حقيقي ولا نسييه لوحده؟

أحد الحراس ساخرًا:

-يا عم سيبه مش هيعمله حاجة، مرزوق بيخوفه بس، واضح أنه خرع، وعيل نيتي.
بعد أن غادر الحراس يذهب إليه كمن سيصطاد فريسته لتوه، يلف ذراعه حول عنقه ليقوم بخنقه ويخبره محذرًا قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة:
- متحاولش أنك تقتلني واضح أنه بيبعت ناس غبية، أنا سيد اللعبة دي.
يكسر رقبته بحركة سريعة ليطلق صرخة مدوية ليخر بعدها جثة هامدة وجهها شاحب، توحي باختناق صاحبها. كان يشاهد ذلك مسجون آخر، يقف بعيدًا مذهولًا مما رأى للتو، ليقترب منه ويهمس في أذنه، ويشير لجثة الرجل الملقى أرضًا:
- أنت هتشاهد أني مجنون، وإلا هتحصل الجثة المرمية دي.
يهز المسجون الآخر رأسه بإيجاب ويخبره أنه سيفعل أي شيء ولكن ليتركه وشأنه. بالتأكيد يأتي الحرس راكضين لرؤية ما سبب تلك الصرخة ليجدوا جثة هامدة وشخصًا يحاول إسعافها أو يهيئ لهم ذلك، ليصرخ مرتعبًا أن ينجدوا المسجون قبل أن يموت وهو بالأساس من قتله! وهذا يذكرني بالمثل القائل" يقتل القتيل ويمشي في جنازته". لم يهتم أحد بالمسجون فبالنهاية ليس له أحد ولا يزوره مخلوق، لذلك سيواري التراب جثته وانتهى الأمر. هكذا بكل بساطة، ماذا اعتقدت؟
وها قد حل سريعًا تشرين الأول "أكتوبر" بنسماته الباردة وهبات الريح المنسم بالصقيع، اصفرار الأوراق كالأصيل، الغيوم المتفرقة في عنان السماء، زخات مطر تتراقص ترحيبًا بالأجواء الشتوية، الأشجار تتأهب لخلوها من سترها، لتبقي بدون ستر يستر تعريها. دعنا لا ننسي ذكري السادس من

أكتوبر والانتصار العظيم، أ كان أنتصارًا عظيمًا أم مخزيًا؟ لا أدري ولا شأن ليّ.
لندن.. الساعة الرابعة عصرًا.
البعض يتلحف بمعطفه الفرو، والبعض يتراكض ليدلف إلى منزله قبل أن تشتد ريح الصقيع العاتية، فقط المعاتيه من يظنون أن هذا الطقس رومانسي، أ أموت من البرد لأجل الرومانسية، فلتحترق في جهنم، المهم أن أنعم بالدفء. النساء وعقولهن الفارغة لا يفكرن إلا في التفاهات، مساكين هم الرجال بحق.
يتلحف بمعطفه ويسير مسرعًا قبل أن يمرض أحد الأولاد، لتتحدث معه زوجته بكل حب ورجاء:
-جاد.
ليرمقها بنظرة حب :
- قلب جاد.
تنظر له بعيون بريئة ومستعطفة:
-أنا تعبت من المشي شيلني.
ليخبرها ممازحًا ودون أن يرتب كلامه:
-الكلام دا قبل ما تتخني يا حياتي.
تشدوه وتفتح فمها مذهولة لتسأله في حنق:
-قصدك أني تخنت؟
يحاول أن يتدارك الموقف ويتصنع البلاهة :
- لا يعني بس أنا شايل الولد، هشيلك أزاي؟
تعطيه الطفل الآخر وتخبره أن يحمله عقابًا له:
- طيب وخد شيل البنت كمان عشان تتربي.
يخبرها معتذرًا ويحاول استمالت قلبها:
-أسف والله يا حياتي أنتِ.
لتزفر في حنق وتتركه وتهم بالرحيل:

- انتهينا.
يعقص حاجبيه وينظر ببراءة:
-خلاص يا وردة الليل، أنتِ في خفة الفراشات.
تخجل وتأخذ منه الفتاة وتخبره مبتسمة:
- بطل كلامك دا.
يقبل جبينها في حب:
-ما أحنا مكبرناش يا فيروزة لسه العمر قدامنا، لسه معجزناش.
الحياة لا تتوقف أمام موت أو حياة أحد، الحياة دوامة تأخذنا بداخلها، لنجتاز فترة معينة ومن ثم نرحل كما جئنا بدون دينار ولا درهم.

الفصل التاسع عشر: فستان أبيض.

ما زال تشرين الأول "أكتوبر" ينشر عبيره في الأرجاء، الأوراق تصفر وتتساقط تبعًا، البرودة المنعشة والتي تشتد فجرًا، الأجواء المحببة لمحبين الأجواء المعتدلة والهادئة.
تقف بجوار زوجها أمام باب منزلهما بعد أن عقد قرآنهما وتزوجا، كان زواجًا عاديًا، بدون زفاف فقط في حضور والداها، شاهدين على وثيقة الزفاف هكذا فقط، بدون زخارف كاذبة وأناس منافقون. يفتح الباب على مصراعيه ويخبرها بودٍ، مشيرًا لها بيده أن تدلف إلى الداخل:
- اتفضلي أدخلي، بصي أنا غيرت فرش الشقة كله، عشان مينفعش تدخلي على فرش قديم، بما أنك رفضتي فكرة الفرح والمهر مع أنه من حقك يعني، بس احترمت رغبتك.
تمسك بيدها فستانها الأبيض من الحرير نظرًا لطول الفستان قليلًا، لتجيب متململة:
-أستاذ مراد، حسيت ملوش لازمة يعني.. أنت أتجوزت قبل كدا وأنا كمان فمفيش داعي يعني.
يأخذ بيدها ويدلف إلى الداخل بعد أن أغلق الباب جيدًا، ليخبرها بنبرة ودودة:
- هعوضك عن كل دا بعون الله، وهحاول أعمل اللي أقدر عليه.
ترتعد فرائصها وتتحدث بصوت خائف، يحتله الرعب:
-أستاذ مراد أنت بتخوفني والله، يعني حضرتك متعرفنيش يدوبك غير من فترة صغيرة.
يبتسم ومن ثم يتحدث خجولًا:
- حسيت روحي بتألف روحك معرفش ليه؟

تنظر لأسفل وتخجل من حديثه، لم تعتاد على كل ذلك الود والحب، لقد اعتادت على الجفاء:

- وأنا لما صليت أستخارة حسيت بقبول من ناحيتك يعني يا أستاذ مراد.

يتناول يدها ويضغط عليها ليجعلها تطمئن:

- جيان. ممكن كفاية تقوليلي أستاذ مراد دي، أحنا مش في الشغل. أهدي قلقانة ليه؟

تنتزع يدها من يده وتفرك كف بكف متوترة:

- بمناسبة الشغل..

يقاطعها بنبرة هادئة حنونة:

-عارف لو حابة تشتغلي مش همنعك يا جيان ليك حرية التصرف.

تحاول أن تهدأ ومن ثم تردف خائفة:

- طيب مش هتضايق مني؟

يحاول أن يطمئن قلبها المخذول والمتعب، ويخبرها مبتسمًا:

-وأضايق منك ليه يا جيان؟ مفيش سبب يخليني أضايق أنت بطبيعتك في حالك وبتعملي شغلك وبس. ما علينا يلا نصلي ركعتين لله.

تخبره بجزع وتسترجي أن يمنحها وقتًا لتعتاد عليه، بالطبع ليست مرتها الأولى ولكن التجربة الأولى كانت مريرة نوعًا ما، أصبتها بالجزع من العلاقات :

- حاضر. ممكن بس تديني وقت، قصدي يعني...

ليقاطعها بود يشوبه التحذير قليلًا:

- زي ما تحبي، خدي وقتك. أهم حاجة تحترمي نظامي وخصوصياتي.

عندما سمعت نظام وخصوصية أنزوت خائفة إلى أقصى ركن في الأريكة يحتل وجهها الرعب والاصفرار، وبداخلها سؤال هل سيتكرر معها الذي حدث من جديد، أن يكون اختيارها خاطئ مجددًا لن تستطيع تحمله:

- زي إيه؟

يقترب منها ويتناول يدها ويربت عليها في حنوٍ، لجعلها تهدأ وحسب:

- يعني مثلًا ليا وقت معين بقرأ فيه قرآن مبحبش حد يقاطعني فيه، في وقت ليا لوحدي مخصص دا بذكر فيه الله، في وقت بصلي القيام دا لو تحبي تشركيني يعني هكون مبسوط لأني كنت بعمل كل دا لوحدي قبل كدا.

تطمئن قليلًا ومن ثم تسأله سؤالًا غبيًا:

- طيب ومراتك؟

يجيب في مودة وحنان:

- حاولت معاها مرة واتنين وتلاتة ومكنش في تحسن أو تقدم حتى.

تسأل سؤالًا آخرًا يبدو أنها لن تمل من الأسئلة:

- أستاذ مراد، طيب حضرتك عندك ولاد؟

يتحدث بصوت هادئ مطمئن:

-ربنا مكرمناش بالولاد، الدكاترة بيقولوا مفيش حاجة بتمنع يعني لو كل طرف أتجوز تاني هيخلف عادي بس أحنا الاتنين مش هنخلف من بعض، وأكيد فهمتي أسباب الطلاق، أنها عاوزة تكون أم ودا حقها يعني، أي ست في الدنيا نفسها تجرب شعور الأمومة.

عندما تفوه بكلامه الأخير، انفجرت باكية، بالرغم من بشاعة بكائها ونحيبها، إلا أنه حاول أن يجعلها تهدأ، ليحتضنها ويخبرها مهدئًا:

- جيان أهدي طيب، آسف والله، بجد مش قصدي، جيان طيب والله ما كان قصدي، أنا آسف.

تشهق وتحاول أن تستجمع كلماتها وبصوت متقطع:

- أستاذ مراد.. أنت كدا بتعدم أملك.. أنك تكون أب أصلًا، كنت أخترت حد ينفع يكون .. أم لولادك.

يمسك وجهها بين كفيه ويحاول أن يكفكف دموعها المنهارة:

-جيان ممكن تهدي طيب، أولًا العيال مش مهم يا ما عندهم عيال ومش عارفين يربوهم، والعيال دي رزق من عند ربنا، وصدقيني كان ممكن لو هي صبرت نخلف عادي، كل حاجة بأيد مالك الملك. بصي يا جيان أنا أخترتك لأن روحي أرتاحت ليك، حسيت بسكون من ناحيتك عمري ما حسيته قبل كدا.

تخبره بصوت محشرج بعد أن حاولت التماسك قليلًا:

-بس...

ليقاطعها بصوته الحنون :

- إيه عاوزة تقولي؟

تحك رأسها ويتوه عن عقلها الذي تود أن تقوله:

-مش عارفة والله الكلام اللي كنت هقوله طار من دماغي.

يتناول يدها ليخبرها في ود:

- طيب قومي نصلي، عشان ربنا يكرمنا بحياتنا ويبارك فيها. وتعالي عشان تغسلي وشك، وهعملك أكل.

تسأل متعجبة:

-هو حضرتك بتعرف تطبخ؟

ينظر لها ويحاول ألا يصاب بجلطة، ولكن يتفهم خوفها:

- بعرف أعمل شاي، وأسلق بيض، بصي شيف قد الدنيا أهو.

لتبتسم من حديثه، لتخبره أن ينتظر بنبرة ودودة:

- لا بص أنا هعمل الأكل، مش عاوزة أموت في عز شبابي.

لتنطلق منه ضحكة دون أرادة منه:

-طيب يا شيف المطبخ قدامك، بالمناسبة ضحكتك حلوة، أضحكي دايمًا.

ها هي تعامل معاملة آدمية ربما، شخصًا يعاملها بودٍ يشاركها حياتها وتفاصليها، يحب ما تحب، شخصًا يأخذ بيدها ويعينها على أمور دينها ودنياها. ربما تبتسم الحياة لنا يومًا من يدري.

أتعلمون ذلك الإحساس عندما تألف روحكم أحدًا، هكذا أحست أنه يشبهها ويشبه روحها، يمكن أن يرمم كسرها وكسر روحها. ربما يكون هو الوجهة الصحيحة بعد طريق موحل ومعبد بالطين.

* **

في مطبخ بسيط، يحتوي على موقد للغاز وثلاجة حديثة نوعًا ما، تقف بمئزر الطهى، تحرك آنية المربي المعدنية، وتزدرد قليلًا من الأناء لترى مستوي نضجه، وهل تم النضج أم ليس بعد؟

يدلف أحدهم ويتسلل خلفها ويهمس بحب:

- جيو بتعملي إيه؟

تضع يدها على قلبها من هول المفاجأة:

- خضتني يا حمزة. بعمل مربي، تدوق؟

يقف بجانبها ويخبرها محبًا:

- جيلاتي بتعمل مربي، أديني أدوق.

تأخذ قليلًا من المربي وتنتظر قليلًا لتبرد، لتخبره بتحذير:

- استنى يا حمزة، لسه مستواتش، وكمان ساخنة.

يزدرد قليلًا من المربي ويخبرها متلذذًا:

- يم، أجمل حد يعمل مربي.

ومن ثم يردف قائلًا:

- هاخدك مكان حلو قوي، على الأقل بالنسبالك.

تسأله بتعجب وتعقص حاجبيها:

-هنروح فين؟!

يغمز لها بطرف عينه ويخبرها هادئًا:

-خليها مفاجأة.

* **

وسط المنازل المتناثرة، يقف هذا الصرح الشامخ، حديقة من الرياحين والجازانيا، ينصف المشهد أطفال صغار يلعبون، يلهون، يلونون، يتشاجرون، لا بأس بقليل من الشجار وعدم النظام كذلك، هالة من المشاعر التي تدعى "حب" تحيط بالمكان وتحتل زواياه. تقف مذهولة لتحاوط ذراعيه وتميل على كتفه بتأثر:

- بجد المكان حلو بجد.

يربت على يدها ويخبرها بنبرة ممتنة:

- كنت عارف هيعجبك.

تميل على كتفه وتذرف دموعها فيضًا من التأثر:

- كل دول ملهمش أهل؟

يضمها إليه في حنان ويكفكف دموعها بيده الحانية:

-أهدي يا جيو، ربنا عوض الولاد دول بالمكان دا.
تحاول أن تخرج أي حديث من حنجرتها فلا تجد ما تقول فتحولق :
-لا حول ولا قوة إلا بالله، والله ما عارفة أقول إيه؟
يخبرها عطوفًا ومحبًا:
-متقوليش حاجة، بس حبي المكان والولاد و هما هيحبوك.
تسأله في حيرة وعلامات البلاهة تحتل وجهها:
- بس ليه الملجأ مكتوب بِاسم رحيم؟ يعني لا اسم مستر عاصي ولا أخوه ولا حتى أبوهم مستر مدحت، مش غريبة دي؟
يهز كتفيه ويزم شفتيه ويخبرها متحيرًا:
- معرفش الحقيقة، اللي أعرفه أني لازم أمشي لأني بزهق هنا.
تتشبث به كالأطفال وتخبره في استعطاف:
- والله الأطفال حلوين بجد تزهق إزاي؟
يخبرها متوترًا، ويحاول التهرب:
-مبعرفش أتعامل مع الأطفال، بحس بالارتباك.
تردف سائلة في حنق:
- أومال لما هيكون عندك طفل هتعمل إيه؟
يجيبها متوترًا:
-ما أنا هحاول أتعامل يعني.
تشدد على يده وتخبره بحب وامتنان:
-مبسوطة أنك جبتني هنا.
يضمها إليه ويقبل جبينها :
-ودا المهم بالنسبالي، فرحتك عندي بالدنيا.

يذكرني ذلك بأغنية قديمة، ولا تسعفني الذاكرة بكتابتها بطريقة صحيحة ربما ولكن لا بأس.

" والدنيا في عينيايّ ما تسوى يوم وأنت بعيد
والدنيا حلوتها كلمة حلوة تطمني"
أي أن الدنيا أو هذه الحياة بشكل خاص لا تساوي شيئًا ورفيق دربك مفارقك أو هناك مسافة "حاجز" يفصل بينكم.
وأن مفهوم الاطمئنان تلخص في كلمة واحدة ألا وهي الكلمة الحلوة التي تزهر الروح كما تزهر مضخة المياه الحديقة البائسة.
الكلمات تخلق أجنحة وبيدها أن تخلق قرون شيطان، صدقني كل شيء يبدأ منك وينتهى إليك. في النهاية ستحصد ما تزرع فأحرص على انتقاء شتلاتك جيدًا.

الفصل العشرون: أيام تمر

بعد مرور ستة أشهر.

مرت كما تمر الأيام العادية بشكل اعتيادي ورتيب، ماذا سيحدث يعني؟ سيحتلنا الفضائيون في هذه المدة! كفى عبثية.

ما حدث أن الجميع يتابع حياته، والجميع يعني الجميع بلا استثناء. البائس الأحمق يعتني بعمله وطفله وتسير حياته بشكل روتيني، يذهب للعمل، يعود لمنزله، طفله يبكي، يحاول السيطرة على الوضع الذي بات مجبرًا عليه، ودوليك إلى آخره من روتين. الفقد يجعله بائسًا، كلما تاه أو أصاب قلبه أضغاث قروح، يذهب إلى المسجد، لقد سمع أخاه يخبر طفلًا صغيرًا أنه عندما يتوه يجب أن يذهب إلى المسجد، فأخبره الطفل حائرًا وماذا لو تاه وهو كبير؟ أجابه بحنانه المعتاد: خصوصًا وإن كنت كبير، عندما تتوه اذهب للمسجد.

وها هو ذا عندما يتوه وتتضيق حجرات قلبه، يذهب إلى شيخه ويخبره هل يفعل الصواب؟ دائمًا ما يسأله هذا السؤال ويتلقى دائمًا ذات الإجابة " ضع يدك على قلبك وتذكر وجهتك تكون أينما كان قلبك" أو " اذهب إلى الله، يلقنك صحيح الجواب" دائمًا إجابات شيخه مباغتة، ولكنه بالفعل تائه، يحاول أن يجمع شتات قلبه لو يستطيع.

سيرين رحلت وعادت إلى موطنها، كما هو الحال. لم تنقطع اتصالاتها به، ما زال صديقها المقرب بالرغم من أيما شيء، الخلافات تحدث بين الأصدقاء، والبقاء للود. سيدة الرحيل مقربة منه ولكن ليس كالسابق، فقط تطمئن على حاله من مسافة بعيدة، لم يعد من حقها الآن. أعني أيقنت إنه تغير كليًا وبشكل كلي لم يعد ذلك الهائم في شتات قلبه على الأقل.

الوغد مازال في السجن، إجراءات الخروج ستأخذ وقتًا وفي الواقع يحاول التظاهر بالضعف والبؤس، وجهه البريئة وملامحه الملائكية تجعل أي شخص يصدقه.
الفتى المتلعثم حياته مستقرة مع زوجته، ماذا يريد أكثر من ذلك؟
نيسان" ابريل" حياة تنسى وتبدأ حياة جديدة، نستحق عوضًا يليق بنا، وجبرًا يجعلنا نخر مغشيًا علينا من الفرح، إن تأخذ الحب هو شيء رائع أما العطاء فله طعم مختلف، إن تعطي دون أن تنتظر مقابلًا شيء لا يقدر عليه سوى الأسوياء والقلوب الخضرم.
في مكتب العمل، الملفات المكدسة، العمل المضنى، صراخ المدير بالعاملين.. أمزح. لا يصرخ بهم، هو ليس مجنونًا ليفعل ذلك. تلتقط هاتفها بصعوبة بالغة وتئن من الآم رأسها، تتحدث بصوت واهن:
- أستاذ مراد ممكن أروح البيت.
ينهض من كرسي مكتبه ويخبرها قلقًا:
-في إيه يا جيان مالك أنتِ كويسة؟
تحاول التقاط بعض الكلمات، هي بالفعل متعبة:
-معرفش حاسة نفسي مش كويسة، ممكن أروح؟
يخبرها خائفًا:
- طيب أستني هرجعك البيت.
تخبره ممتنة:
- متشكرة.
يأخذ سترته ومفاتيح سيارته ويجعلها تستند عليه، نظرًا لإرهاقها ووهنها، يعود بها للمنزل، فتتركه حالما ينفتح الباب فتدلف إلى دورة المياه، تغلق على ذاتها، شاعرة بغثيان شديد،

تقئ جميع ما في معدتها، يقف أمام الباب ينتظرها ريثما تفرغ، يطرق الباب طرقات خفيفة ويخبرها قلقًا:
- أنتِ كويسة يا حبيبتي؟
تمسك رأسها وتخبره في وهن:
-مش عارفة، حاسة بدوخة وإرهاق وصداع رهيب هيفرتك دماغي.
يخبرها متوترًا:
- طيب خلصتي.
تخبره بصوت متحشرج:
-مش عارفة أنا كلت إيه إمبارح؟ شكلي حصلي تسمم باين.
يحرك مزلاج الباب ويدلف إلى الداخل ليساعدها، يزيل شعرها بعيدًا عن وجهها ويلتقط منديلًا ليمسح القيء عن فمها، يخبرها في نبرة حانية:
- أهدي طيب.
تفرغ ما في معدتها مجددًا وتجيبه بصوت مرهق:
-مش حاسة أني بخير، أنا هموت ولا إيه؟ أول مرة تحصلي الحاجة دي.
يطرح عليها سؤالًا في شك:
- مش يمكن حامل طيب؟
تخبره أن يتوقف عن المزاح بنبرة معاتبة:
- يا مراد متهزرش الدكاترة قالوا أملي ضعيف و....
تقئ مجددًا، دون إرادة منها:
- ياووه تعبت، أنا كلت إيه؟ وبعدين لما كنت حامل محصلش كل دا.
يعض على شفتيه ويسألها بنبرة هادئة بالرغم من غيظه وغيرته:

-كنتِ حامل في كام شهر قبل كدا؟
تتجمع الدموع في عينيها لتتحدث بصوت محزون:
- في شهر واحد باين، لأني كنت فرحانة أني هكون أم، بس هو .....
ومن ثم تباغتها تلك الذكرى المزعجة، لتنفجر باكية دون إرادة منها:
- مش عاوزة أفتكر يا مراد، أرجوك. كفاية أني مش هحقق حلمك أنك تكون أب.
يضمها إليه ويخبرها بحنانه المعتاد، ومن ثم يجعلها تستند عليه لتدلف خارجًا:
-أهدي يا حبيبتي أهدي، تعالي نطلع برا، بلاش تبكي في الحمام.
يأخذها لتجلس في الصالة الفسيحة ويكفكف دموعها بيده الحانية، يتناول وجهها بيده ويخبرها أن تنظر إليه:
- حبيبتي بصي، بصيلي يا جيان.
تنظر إليه بعيون دامعة، ليردف:
- جيان قولتلك كتير أن العيال والخلفة دول من عند ربنا، حصل ولا محصلش؟
تهز رأسها وتجيب بصوت محشرج:
- حصل يا مراد.
يخبرها بنبرة آمرة:
-طيب غيري هدومك وهاخدك للدكتورة عشان تشوفك.
تجيب في انصياع:
- حاضر.

في عيادة الطبيبة النسائية..

تجلس مستندة على كتفيه، تنزوي في كنفه تستشعر به الأمان، يمسك يدها مطمئنًا لها. بعد برهة قصيرة تخرج ممرضة من غرفة الفحص لتخبرهم أن دورهم حان لمقابلة الطبيبة.

يدلفان إلى الغرفة، تشير لهما الطبيبة أن يجلسا، تباغت السيدة بسؤال عن صحتها ومن ثم تخبرها منذ متى وهي تناوبها أعراض المرض:

-مدام جيان من امته بتحسي بدوخة وأرهاق؟

تجيب بنبرة رزينة:

-من شهرين تقريبًا.

تعدل نظارتها ومن ثم تسأل كرة أخرى:

-كلتي حاجة طيب؟

ليجيب زوجها في لهفة وقلق:

-ماكلتش حاجة يدوبك هي كانت صايمة النهاردة عشان صيام رمضان، كل سنة وأنتِ طيبة، وإمبارح كلت سلطة وتمرة واحدة، ومعلقتين مكرونة بالعدد، ومكملتش أكلها حتى.

تنظر له الطبيبة بطريقة معناها أن يصمت:

-طيب أمته انقطعت عادتك الشهرية؟

تفكر في بلاهة ومن ثم تحك رأسها:

-مش فاكرة الحقيقة؟

تبتسم الطبيبة وتخبرها بهدوء:

-هعملك اختبار حمل.

تنظر في بلاهة إلى زوجها، والقلق يتخلل وجهها، ينتظران إلى أن تأتي الطبيبة لتخبرهم بالخبر الصادم:

- مبروك المدام حامل.

تهز رأسها في صدمة وبلاهة:

- حامل إزاي يعني لا مش أنا.

يسأل زوجها غير مصدق من هول الصدمة:

- بتتكلمي بجد يا دكتورة.

تحدجه الطبيبة بعينيها وتخبره بصرامة:

- بتكلم جد ههزر معاك ليه؟

تنهمر دموعها غير مصدقة:

- بس الدكاترة قالوا.

يقترب إلى زوجته ليكفكف دموعها ومن ثم يستأذن من الطبيبة أن تتركهم برهة:

-ممكن تسيبنا دقيقتين بس.

تنهض الطبيبة في انصياع:

- حاضر.

يتناول وجهها بيده الحانية مكفكفً دموعها ليخبرها في مودة :

- أهدي يا جيان، إيه حصل لكل الدموع دي بس؟

تزداد دموعها وتحاول أن تتملك نفسها ولا تستطيع:

-الدكاترة يا مراد قالوا أنه مفيش أمل، قالولي أني ممكن ما أخلفش تاني، وفجأة كدا الأقيني حامل.

يضمها إليه ويخبرها أن تهدأ:

- أهدي طيب، كرم ربنا لقلبك يا روحي. شوفتي ربك كريم أزاي؟

تنزوي إليه وتخبره في سعادة يتخللها الحزن:

-الحمد لله والشكر ليك يارب. والله يا مراد أنا كنت فقدت الأمل خالص.

يتناول وجهها بيده ويخبرها ممازحًا بعد أن مسح دموعها:

- خلى دايما أملك بربنا كبير. الحمدلله. خلاص بقا يلا بينا هنروح البيت ونعيط هناك، مينفعش نعيط قدام الناس، صح يا حبيبي؟

تهز رأسها في إيجاب وتخبره ممتنة:

-صح.

بعد أن عادا إلى منزلهما وقف إمامها وأجلسها إمامه وأخذ يحادثها ممازحًا:

-بصي بقا هاخدلك أجازة من الشغل بلا شغل بلا بطيخ، وهتتغذي كويس فاهمة.

تنكس رأسها في خجل:

-مش كفاية فطرت النهاردة وسيبتك صايم لوحدك.

يخبرها بنبرة حنونة:

-جيان يا حبيبتي أنت حامل يعني الصيام مش مفروض عليك، عشان في روح بتغذيها. من فضلك لازم تتغذي كويس.

تخبره في تبرير وتحاول أن تستدر عطفه:

- يا مراد. بص طيب لو قدرت أصوم هصوم ماشي، وهاخد بالي من نفسي متقلقش.

يحاول أن يتغاضى وفي ذات الوقت يحذرها بمحبة:

-حبيبتي، أنا مش بجبرك على حاجة، بس بجد لازم تهتمي بصحتك والروح اللي تكونت جواك.

حاولت النهوض فتهاوت وكادت أن يغمى عليها، لولا أن استندت عليه في وهن :

-هحاول يا مراد، ممكن تسندني بس عشان أصلي. وأنت كمان لازم تصلي، وترجع شغلك.

ينصاع لكلامها ويفض السيرة:

-حاضر يا جيان، هعمل كدا، يلا تعالي.

تستند عليه وتخبره بنبرة محبة:

- شكرًا لوجودك جانبي.

يربت على كتفيها ويتحدث مطمئنًا:

- لو مكنتش جانبك مين هيكون يعني، عشان خاطري حاولي تأكلي ومتعنديش وتستني لما نفطر سوا.

تتحدث بصوت معاتب:

-مراد.

يضع يده على رأسه متعبًا من عنادها:

-حبيبتي، ممكن بلاش عناد، أنا صحتي على قدي والله.

تبتسم خجلة وتخبره بانصياع:

- حاضر، بإذن الله.

عاد مغربًا ووجدها كما هي، مع ازدياد شحوب وجهها، أدرك أنها لم تذق طعم الزاد، فتسأل في ارتياب:

-برضو مأكلتيش صح؟

تململت قائلة:

-يا مراد مليش نفس طيب.

أخبرها أن تقترب إلى جواره وتجلس مقابله:

-تعالي هأكلك بإيدي.

أحمر وجهها خجلًا، ولكنها رضخت لأمره:

- متعودتش على كدا، أنت بتكسفني.

يأخذ الخبز بيده ويفتته لقيمات ومن ثم يأخذ لقمة ويغمسها في الحساء، وينتظر قليلًا لتبرد ومن ثم يطعمها إياه:

- كلي طيب، وغذي نفسك وعضمك، والدتك هتقول جوعتك من العيشة معايا، وأنا والله بريء.

تتناول الطعام من يديه وتخبره نافية:

- لا مش هتقول كدا.

يناولها الطعام بحب:

-طيب كلي يلا، ومتستنيش لما أرجع كلي أنت.

تخبره بمودة وعيون خجلة:

- مقدرش أكل من غيرك.

يخبرها بحنانه المعتاد:

-عادي كلي، ولما أرجع كلي تاني عادي، مفيهاش حاجة، روحين بياكلوا عادي.

تسأله متعجبة:

-أنت بتعلفني ؟

يتناول يدها ويقبلها ومن ثم يخبرها:

-لا خايف عليكي، مش هستحمل حاجة تحصلك يا جيان، وهعمل اللي أقدر عليه عشان أحافظ عليك.

ما زال الخوف ينغص معيشتها، ما زالت لا تصدق أن الله يعوض قلبها خيرًا، أ يعقل أن يؤذى الإنسان لدرجة إنه لا يصدق أن هناك عوضًا جميلًا لقلبه؟

الفصل الواحد والعشرون: لا أريد خسارتك

مرت الشهور داول فتلك الأيام نداولها بين الناس، بحلوها ومرها وحنظلها كذلك، كل شيء يمر والأحداث تنسى، حتى الإنسان ينسى ذاته القديمة ويبتدع روحًا جديدة. الإنسان بطبعه طامع وغير قانع، فبالله أ يرضى أحدًا بما قسمه الله له؟ الجميع يشتك حاله ولا أحد يرضى بنصيبه الذي كتب له أن يكون، هل أنت قانع عزيزي القارئ في قرارة نفسك أم ناقم؟

في مطبخ قد يبدو بطراز قديم ولكنه العكس تمامًا، البساطة تحتل أركانه، تقف سيدة ببطن منتفخ إمام الموقد تقلب قدرًا ما، ليأتي أحدهم من خلفها وهو يدندن :

- أنا لحبيبي وحبيبي إلي.

تشير إليه في تهكم:

-من أمتى وأنت بتحب الأغاني؟ أنت بتزعق وتهز المكتب كله، لما تلاقي حد مشغل أغنية.

يرفع حاجبيه متعجبًا:

- بس نسيتي أني كنت بسيبك تسمعي فيروز، ولا نسيتي؟

تنظر له بمودة تتخللها الرهبة:

- كنت بستغرب جدًا منك والله، وكنت بخاف وأطفيئها بسرعة.

ومن ثم تردف سائلة:

- بتحب فيروز يا مراد؟

يتحدث ممازحًا:

- اسمها أستاذ مراد، عشان باقالك مدة مش بتقوليها، أيوه بحبها، ومش قادر أبطل اسمعها مع أنها لا تجوز يعني.

تنظر له في لوم وعتاب:
- مراد، من فضلك .
يطلق ابتسامة من ثغره ومن ثم يدندن مجددًا:
- قلب مراد، خلاص مش هغلس، أنا لحبيبي وحبيبي إلي.
لتجاريه زوجته مدندنة:
-يا عصفورة بيضا لا بقا تسألي.
ليردف متابعًا:
-لا يعاتب حدا ولا يزعل حدا، أنا لحبيبي وحبيبي إلي.
يعم الصمت قليلًا فيردف متحادثًا قاطعًا ذلك الهدوء:
-عصفورتي.
لتجيب زوجته:
-نعم.
ليحك رأسه ممازحًا:
- لا ولا حاجة.
ترمقه بنظرة مستاءة :
-طيب.
ليتحدث جادًا:
-وجودك أطيب من رائحة المسك. يا عود المسك.

تنظر له في مشاكسة :

-كل بعقلي حلاوة.

يلكزها في كتفها برقة ويخبرها ممازحًا:
- ما أنت واكلة بقلبي حلاوة ومتكلمتش طيب.
تنزوي بعيدًا بحركة لا إرادية وتخبره ممازحة :
- والله خايفة بعدين لتطلع قاتل متسلسل وبتقتل الستات، مش معقولة الحنية دي كلها.

يقترب منها ويتحدث متهكمًا :
-عندك أفكار جهنمية الحقيقة، هو الشخص السوي اللي بيخزن الحب لمراته، ويغضض بصره عن الباقي يبقي قاتل متسلسل؟
يتزعزع كيانها وترتجف أوصالها في مخافة:
-مش قصدي يا مراد، بس متعودتش على الحب من النوع دا.
ليضمها إليه ويجعلها تهدأ:
- حبيبتي، أنت تستحقي كل الحب اللي في الدنيا، تعرفي ليه؟
تنظر له بعيون راضخة:
-ليه؟
يربت عليها ويخبرها محبًا:
- لأنك عفيفة ونقية، مشوفتش حد في طيبة قلبك ولا حنيتك، أنا بحمد ربنا أني لاقيتك.
تنزوي إليه وتخبره بمودة:
-أنا اللي محظوظة يا مراد، أن ربنا بعتك ليا جبر لقلبي وعوض عمري ما كنت أتخيله حتى. شكرًا لأنك مستحملني.
يأخذها لتجلس قليلًا، فقد شعر بأنفاسها تتسارع وألمت بها الآم الحمل:
-لا يا جيان والله دا أنتِ تتشالي فوق الرأس، كفاية أنك مكاني الآمن في الدنيا دي، أول حد أحس بالأمان معه، ولما تحصل مشكلة أو أي حاجة في الشغل بلاقيك واقفة جانبي وعمرك ما أشتكيت حتى.
ليردف مقبلًا يداها:
-فاكرة لما خسرت صفقة مهمة، وكنت هعلن أفلاسي، جيبتي كل قرش وكل صيغة أنا جبتهلك. وقولتيلي كل حاجة هتتعوض وكفاية وجودك، وهنعدي كل دا، والله لو جبتلك كل كنوز الدنيا مش هتوفي وقفتك جنبي في الوقت دا بالذات.

تخبره خجلة:
-مراد، دي فلوسك أنت وحاجتك أنت يعني، أنت جيبتها يعني مالكك. وبعدين ما أنت عوضتني، بأحسن منها.
ينظر لعينيها مطولًا ومن ثم يقول:
-مهما هلف وأطوف هتفضلي لوحدك القشة اللي جات عشان تنجيني.
الجبر عندما يأتي متأخرًا يكون جبرًا عظيمًا بحق، فلا يمكن أن تتخيل أن الله يحبك بمثل هذه الدرجة، بعدما كنت تعتقد أن الله لا يحبك من كثر ما تعرضت للخذلان في مواضع الأمان. إذا تأخر العوض فلتعلم إنه سيأتي عظيمًا مثلما كان البلاء عظيمًا.

في مشفي تفوح منه رائحة الموت والمعقم، الجثث تنير المشرحة وتشرح القلب الحزين، تنتظر المشرحة جثة منذ عام ونصف ولكن زوجها الأبله يرفض تسليمها إليها ويجعلها تتشبث بهذه الحياة العفنة، بالرغم أن المشرحة جميلة وبها ثلاجات ضخمة لحفظ الموتى، يعني يستطيع أن يخلل زوجته للأبد لو أراد في النهاية النقود تحكم كما أرى.
يجلس بجوار سريرها تلك الراقدة وسط الأجهزة كالزهرة البرية وبين يديه وليده الصغير، يهمس بجوار أذنها ويحادثها مستعطفًا إياها، يخبرها مرارًا وتكرارًا إنه يريد استراجعها ويكفي ما تفعله يعلم أنها تستمع. ما زال يكرر الحديث ذاته منذ نومها العميق وعنادها المستمر.
وما أن مل من استعطافها قرب إليها وليدهم و ظل يحادثها عن يومياته وعن معاناته معه، عن تركها له في منتصف الطريق، أشار الطفل الصغير بيده إليها وقال بصوت متلعثم:

ماما. فهز رأسه بأن نعم هذه هي أمك يا صغيري. أقترب الطفل الصغير قليلًا وقام بضربها بكفه الرقيق وهو يقول متلعثم: أصح ماما.
جسدها يهتز، الأجهزة تصدر صوتًا رتيبًا مزعجًا، يهرع الأطباء إلى غرفتها، يطردوه خارجها وهو مشدوه لا يعلم ماذا يفعل؟ هل سيخسرها وينتهي الأمر أم هناك رأي آخر؟
يصارع الأطباء لاسترجاع نبضها مجددًا، تحدث دوامة في غرفة الإنعاش محاولين إنقاذها، بعد معاناة الأطباء يستطيعوا أن يجعلوا نبضها طبيعيًا مرة أخري. توضع تحت العناية لمدة معينة. وذلك لاسترجاع كامل عافيتها.

تستيقظ رويدًا فتجده نائم بجانبها، تختلس نظرة سريعة ومن ثم تتحاشي النظر إليه، تنزوي إلى طرف الفراش وتأن بصوت بكاء مكتوم، فيستيقظ ويخبرها بلهجة حنونة:
- استيقظت جميلتي النائمة من سباتها العميق.
ومن ثم يردف ممازحًا:
- بس كان مفروض أبوسك عشان اللعنة تتفك، زي القصص الخيالية.
تغلق عينيها وتلتصق بالفراش، ترتعش أطرافها وفرائصها خوفًا، فيحاول طمأنتها ويقترب ليمسد شعرها بيده:
-نارين والله مسامحاك وسامحتك، أنت ملكيش ذنب في أي حاجة.
تضرب يده لتبعدها عنها وتخبره في صوت محشرج:
- مش هقدر أبص في عيونك يا عاصي، صدقني مش هقدر.
يحاول أن يمسك يدها ليقربها منه ولكنها تصده عنها وتنزوي أكثر في زاوية السرير وتعطيه ظهرها متحاشية النظر إليه.

يحاول أن يستدر عطفها ويخبرها بنبرة صادقة :
- نارين أرجوك، أنا بقولك سمحتك.
تتحدث بصوت مكسور وكبرياء محطمة:
-مش هقدر... أسامح نفسي... إزاي هتقدر تستحمل كل دا.
يخبرها مصرًا:
- استحملت اللي أكتر من كدا، عادي ملكيش دعوة أنتِ.
تصرخ به أن يتركها وشأنها، تعتقد أنه لا يحبها، ويبقيها معه إكرامًا لعمته، ولأنها أنجبت له طفل وحسب:
- أرجوك يا عاصي سيبني... الدكاترة بيقولوا أني خلاص مش هخلف تاني، أنا كنت بسمعهم... أنا كدا مليش لازمة في حياتك بعد كدا. خلاص انتهيت كل حاجة.
يخبرها بنبرة حنونة محاولًا التخفيف عنها :
- عندنا ابن يا نارين الحياة منتهتش، والدكاترة ملكيش دعوة بيهم هما مش ربنا عشان نأخد على كلامهم. وعندك ألف طفل زنان محتاجينك ومفقتقدينك.
ومن ثم يردف بقوة وإصرار:
- اللي بيربطني بيك أكبر من العيال والخلفة، أنا بحبك ومش مستعد أخسرك.
تتحدث بصوت متقطع ممزوج بالبكاء:
-هتستحمل خوفي... هتستحمل أنك هتعالجني من جديد.. هتستحمل أني ممكن أخاف أتعامل معاك زي الأول.
يطمئنها ويخبرها بنبرة حنونة:
- هستحمل كل دا، أنا معملتيش كل اللي عملته عشان أخسرك من تاني.
تنفجر باكية وتخبره بصوت ارهقه البكاء:
- أنا أسفة والله سامحني.

يحلف لها مجددًا ليجعلها تصدق أنه بالفعل سامحها :
- مسامحك والله العظيم مسامحك. كان غصب عنك.
يقترب ليحتضنها فتبتعد عنه خائفة مرتعشة:
- عاصي من فضلك.. لا.. لا.
يقترب منها مجددًا ولا يعبأ بها:
- أهدي يا نارين أهدي.
تبعده عنها وتضرب بقبضتها صارخة به:
- أبعد عني يا عاصي... أبعد بقولك .. أنا كلي وسخ .. أبعد من فضلك.

يقترب منها ويقيد حركة يديها غير آبه بضربها له، يحتضنها رغمًا عنها ويخبرها بنبرة ممزوجة بالألم والممازحة:

-وسخ إزاي بس؟ أنت نضيفة ياقلبي، وأنضف مني كمان، بجد هي العناية المركزة بتخلي الواحد قمر كدا ونضيف؟ بس تصدقي صغرتي هنا، بفكر أحجز سرير جنبك.

تنفجر باكية، تشدد من قبضتها على قميصه وتتشبث به فيربت عليها في حنو:
-خلاص.. أهدي.. كل حاجة هتكون تمام. هاخدك من هنا يا نارين وهنسافر من المكان دا وهنبدأ حياة جديدة. حياة فيها أنا وأنتِ وأبننا وبس.
تعتذر مجددًا بنبرة محطمة:
- أسفة والله أسفة.
يتصاعد صوت رنين الهاتف، لا يعير له بالًا، ويظل محتوي زوجته الخائفة، يرن الهاتف مجددًا فيحتم أن الأمر خطير ربما، ينزع يده عن زوجته ويتناول هاتفه ومن ثم يتحدث بصوت رتيب بلهجة روسية بحيث لا تفهمه زوجته:

- لا أستطيع تركها الآن، يمكنكِ أن تأتي أنتِ إلي. أين أنا؟ في المشفى، سأنتظرك.

يغلق الهاتف، ويربت على ظهرها مخبرًا إياها في حنان:

- خلاص أهدي، كفاية بكى، بقا العيون الحلوة دي تبكي؟

لا تنبت بطرف شفة فقط شهقات متقطعة النظير، تظل هكذا إلى أن تغفو من شدة بكائها. يضع رأسها على الوسادة يدثرها بالغطاء ومن ثم يغادر الغرفة وينتظر خارجها، لتأتي سيدة ترتدي فستان زفاف وكعب عال يصدر دوي في طرقات المشفى البائسة، تجلس بجانبه ومن ثم تتحدث بنبرة هادئة:

- أزيك يا عاصي؟

يزفر زفرة ومن ثم يجيب هادئًا:

- الحمدلله، وأنتِ باكي؟

تتحاشى سؤاله وتخبره أن ينظر في عيونها:

-بص في عيوني كدا.

يشدوه من طلبها الغريب:

- ليه يعني؟

تبتسم ومن ثم تخبره ممازحة:

-عاوزة أشوف عيونك لسه بيحبوني ولا؟

ينظر لعيونها بلامبالاة:

- أهو، شايفة إيه؟

تتنهد ومن ثم تنظر بعيدًا:

- لمعة عيونك راحت، وقلبك راح لحد تاني.

يخبرها معتذرًا ومشفقًا بنبرة ولهجة روسية:

-آسف، باكي.

تشير بيدها في حسرة، وتجيب باللهجة ذاتها:

- لا داعي للأسف رفيق، من حقك، أنت تحب زوجتك.
يخبرها مبررًا أو يحاول:
-كما تعلمين وعد عمتي، وهكذا...
لتتحدث بلهجتها الأم الفرنسية:
- توقف يا رجل، إلى متى ستنكر؟ أري الحب في عيونك لها.
يستمع لحديثها في صمت دون يعلق على أيما حرف، لتقطع ذلك الصمت وتخبره متحسرة:
-كنت أتمنى أن تسير الأمور مثلما أريد، ولكن ذلك لم يحدث مطلقًا.
يخبرها بنبرة مشفقة:
- لا أحد في هذه الدنيا يأخذ شيئًا ليس من حقه، نحن نأخذ ما نستحق وحسب.
ترمقه بنظرة خاطفة وعيون تأبى أن تذرف دمعة واحدة:
-بالمناسبة سأتزوج، أتيت لأخبرك وداعًا وحسب. ربما لن نلتقي أبدًا.
ينفعل من كم برودها وكيف لها أن تأتي وتخبره بهذا الخبر كلما تزوجت:
- كما في كل مرة تأتين لوداعي بهذه الطريقة، كل مرة تفعلين ذلك وتخبريني وداعًا يا أبله سأتزوج، إلى اللقاء لأنك لم تستطع الاحتفاظ بي، إلى اللقاء لأنك مغفل وجبان ولم تستطع أن تخطفني من هذه الدنيا والقدر والعالم وأن تحارب الجميع، أليس هذا ما تودين قوله؟
تهدأ من روعه وتخبره بنبرة ودودة يتخللها الحقد:
- لا، عاصي صدقني ليس كما تظن، أنت تحبها هي ومنذ زمن كذلك، ألا تتذكر عندما كنت تتركني عندما تعلم فقط

أنها تبكي، أبعدتك عنها وأخذتك إلى فرنسا فقط لتكف خوفك ونجادتك لها، لأنك كنت لا تهتم لأحد سواها، كم كنت أمقتها حينها والآن زاد مقتي لها.

ليخبرها بنبرة محزونة:

- باكي، كنت أحبك أنتِ فقط، من ملكت هذا القلب، حاولت كثيرًا ولكن والدك أعترض سبيلنا، وأنتِ ما زلتِ تخافين منه، بربك ماذا أفعل؟

تذرف دمعة وحيدة تنساب من عيونها مثل حبة اللؤلؤ:

كنت.. ولكني لن أستطيع أن أنساك ما حييت، لقد حفظت على حياتك يا أحمق، الخوف كان لأجلك، خفت أن يقتلك، لهذا سأبقي مخلوقة تعسة للأبد ربما.

قبل أن يتحدث تخرج زوجته من الغرفة راكضة إليه وتحتضنه في خوف وتشرع في البكاء:

- عاصي... أنا خايفة، لما نمت شوفته في الحلم، أنا خايفة حتى أغمض عينيا.

تنظر إليه باكي فتبتسم ابتسامة محزونة ومن ثم تنهض مغادرة إلى مصيرها وحفل زفافها، أما عاصي فيربت على ظهر زوجته ويخبرها بخوف:

- خايفة من إيه؟ متخافيش يا حبيبي، أنا جانبك ومفيش مخلوق هيقرب منك.

تتشبث به وتخبره في وهن وصوت مجهد:

- هو قتل عمار... و قتل ابني.. مش هيسبني يا عاصي.

يخبرها مهدئًا لها:

- نارين. أهدي يا روحي، قولتلك أنتِ في أمان، أنا جانبك.

تردد بهيستريا وخوف:

- مش عاوزة أعيش.... أقتلني.... مش هقدر أتحمل أني أفضل عايشة في خوف... هحس دايمًا أن عيونك بتلومني.

يضمها إليه ويخبرها بنبرة حنونة:

- نارين. قولتلك هنسافر بعيد، في مكان محدش هيعرفه غيرنا، مكان لينا لوحدنا، أنتِ زوجة مواطن روسي وفرنسي، محدش هيقربلك، وأنا مش هسيبك أبدًا.

يرتجف جسدها وتدور الدنيا بها، لتخر مغشيًا عليها. يحملها بين ذراعيه ويضعها في سريرها، ليجري أتصالًا ليحجز طائرة خاصة لتأخذهم بعيدًا عن ذلك البلد.

هل ستستعيد ذاتها التي فقدتها؟ كرامة الإنسان غالية للغاية فما بالك بإنسان تدنست كرامته وسحقت بالأقدام، فكيف سيستعيد عافيته، كيف سينسى تعرضه للمهانة والذل؟ يحضرني أني ما زالت أتذكر بضع كلمات قالها والدي لي في نوبة غضب فما بالكم بإنسان تجرد من أغلى ما يملك إمام جمع غفير؟

الفصل الثاني والعشرون: تشرين الثاني مجددًا؟

بعد مرور شهر.

تشرين الثاني ها قد عادت أوراق الخريف ليرفرف حفيفها في الأجواء، تتساقط وريقات ذبلة ليضحي بديلها غصن جاف تحففه الرياح يمنة ويسرى، لمن لا يعلمه فهو نوفمبر البرد والغيوم المتلبدة مثل قلوب البعض يجتاحها التلبد والتزمت.

أخذ عاصي زوجته وطفله وغادروا البلاد، غادروا البلد التي لم تنصفهم، التي تغرق في اضمحلال إلى أبد الأبدين ربما، في النهاية هو رجل فرنسي يحق له التجول بحرية والذهاب لأي مكان، جنسيته الأجنبية تعطي له امتيازات لا تعطى لغيره بأي حال. رحل لأنه متيقن أن زوجته لن تتحمل أن تبقى في مكان كهذا، أراد البدء من جديد، لحياة لا يمكن لأحد أن يعكر صفوها.

لندن بطرقها الندية المشبعة بأمطار تشرين، أحدهم يعاني ويضرب في غرفة الولادة ويتعرض لأبشع أنواع التعذيب فزوجته تعض يده وتنجذب شعره لأنه تسبب في هذه الكارثة.

تصرخ في وجهه منفعلة:

- أنت السبب في دا منك لله.

يحاول أن يداري ضحكته:

- أهدي يا فيروزة، أنتي مخلفة توأم قبل دول ومعملتيش كدا.
تحاول أن تلتقط أنفاسها وتجذبه من شعره :
-كانوا قيصري يا غبي. منها لله الدكتورة قالت ينفع بعد القيصري طبيعي، كلمها وقالها تفتح قيصري وألا مش هولد.
يتوارى بعيدًا ويخبرها بهدوء :
-شهيق وزفير طيب.
تصرخ في الممرضين:
- أسكت أسكت، حد يبعده عني هقتله.
يخبرها بذات النبرة المستفزة :
- أهدي يا فيروزة.
تخبرها متألمة:
-منك لله، أنا بكرهك، أنت المفروض اللي تخلف.
يداري ضحكته:
-معلش بقا، المرة الجاية.

مع اختلاف التوقيت، ولكن الأنباء السعيدة تفيض فيضًا فها هي جيان مع زوجها وبجوارها طفلها في أحدى المستشفيات، بعد أن جبر الله ورابط على قلبها.
ليخبرها زوجها ممتنًا:
- مش قولتك ربك هيكرمنا.
لتردد في إيمان:
- الحمدلله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه.
ليردف في مودة:
- هو أنا قولتلك أنك وش الخير عليا.
لتخبره خجولة:
- أنت على طول بتقول كدا.

يتغزل بها بلغة فصيحة:
- لم أدري أن الهوى يصيب حتى أصابتني بالهوى عينيك.
ومن ثم يردف مقبلًا يدها:
-أنت خير الرفيقة الصالحة، مكنتش فاكر هلاقي زيك، بعد ما فقدت الأمل يعني.
تخبره خجلة:
-ماما بتقول محدش بيأخد نصيب حد وأنا مكنتش أعرف أنك نصيبي الحلو.
يخبرها بنبرة حنونة:
-وأنت أجمل من قابلت وممكن لو مكنتش قابلتك واتقدمتلك كنت هندم طول عمري أني سبتك.

في السجن المكفهر ما زال الفاسدين به بالطبع يجب أن يأخذ الجاني جزاءه، هل تصدق هذا الهراء بربك لا يضن غير المواطن المسكين والذي لا ظهر له.

ذلك الفتى المدلل يخبر والده بأنه مل :

-بابا أنا زهقت.

ليطمئنه والده:
- متقلقش المحامي بيخفف الحكم وهنطلع من هنا قريب جدًا.
ليخبره بنبرة متذمرة:
- بجد يا بابا أنا اتهنت جدًا هنا وأنت نايم في المستشفي ولا همك.
ليجحده بعينيه ويزم شفتيه:
-بس ليا علاقاتي اللي هتخرجنا من هنا. وكمان اتهنت فين دا أنت ممشي السجن على الصراط.

بعد أيام مرت سريعًا استطاع المحامي أن يتلاعب بالثغرات وأخرجهم بعد هذا العام، فقدم أن حالة موكله العقلية ليست بخير و أن والده أطلق عيار ناري في لحظة غضب نظرًا لصحته الجسدية وإصابته بأمراض مزمنة، وعلى أقل تقدير أنه تم أخلاء سبيلهم في النهاية. هناك دائمًا طبخات تصنع من تحت الطاولات.
بعض الأشرار بالمناسبة يبقون أشرار للابد ولا سبيل لأصلحهم.

كلمة الكاتبة

لقد كانت هناك فصولًا كثيرة ولكني لم أجد لها داع، لقد أردت للقارئ أن يحدد ما يمكن أن يحدث وفي الواقع كدت أخشى أن أفسد ما كتبته بالأحداث والمط الكثير فأنا بطبعي أضجر من الكثرة بدون فائدة تذكر وما علينا، ولا يخفي عليكم لقد أصابني الملل وغير ذلك تداخلت الأفكار في عقلي ولهذا وضعت النهاية بهذا الشكل كما ترون.
قرائي الأعزاء سامحوني على ما أفعله بكم، كما جرت العادة.

إذا وجدت خطأ لغوي أو إملائي فأعذرني عزيزي القارئ فأنا الكاتب والمدقق على حد سواء.

شيء آخر ربما أكون نسيته: بالطبع تتسألون لماذا دائمًا هناك مفاجآت في رواياتي؟ أعزائي أخبركم بصدق واطرح سؤالًا مهمًا: هل يعاقب الحثالة في هذه الدنيا؟ بالتأكيد لا، وأظنه سؤال وإجابة شافية على فيض أسئلتكم العزيزة.

وشيء آخر مرة أخري، أعرف أني ثرثارة قليلًا ولكن لا بد منه: لا يوجد جزء ثان لقد انتهيت من هذه الأحداث وعفا الله عما سلف.

ملحوظة: هذه الرواية كتبت في السنة الماضية ولم تنتهي إلا الآن.

تمت بحمد الله بتاريخ 18/يناير/2025